إتحاف القارئ

بوسائل التدبر لكلام الباري

تأليف
فضيلة الشيخ
عبدالرحمن بن عبدالعزيز الدهامي

مدار الوطن للنشر

ح مــــدار الـــوطـــن للـــنـــشـــر، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهـد الوطنية أثناء النشر
الدهامي، عبد الرحمن بن عبد العزيز
إتحاف القاري بوسائل التدبر لكلام الباري./ عبد الرحمن بن عبد العزيز الدهامي- الرياض١٤٣٥هـ
١٥٠ص، ١٧ x ٢٤سم
ردمك: ٨ - ٨ - ٩٠٥٣٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- القـرآن - مباحث عامـة ٢- القـرآن - أحكام أ- العنـوان
ديوي ٢٢٩ ١٤٣٥/٢٥٧٤

رقـــم الإيـــداع: ١٤٣٥/٢٥٧٤
ردمك: ٨ - ٨ - ٩٠٥٣٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعـة الأولـى
1435 هـ - 2014 م

مدار الوطن للنشر

هاتف: 00966114792042
(5 خطوط)
فاكس: 00966114723941
الموقـع علـى الإنتـرنـت:
www.madaralwatan.com
البـريـد الإلـكـتـرونـي:
pop@madaralwatan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

أصلُ هذا الكتابِ مقالةٌ كنتُ أعددتُها، وألقيتُها في إذاعةِ القرآنِ الكريمِ المباركةِ بالمملكة العربية السعودية، وذلك نحو عام ١٤٢٧هـ، أو بعده بقليل، وكان الذي قام بتسجيل تلك المادة الأخُ المباركُ الفاضلُ/ فهد العثمان قدَّسَ اللهُ روحَه وأسكنَه فسيحَ جنَّاته، وقد أبدى سرورَه ورضاه بالمضمون وبالإلقاء، ولهذا رغب وأوصى في تكرار بثِّ هذه المادة؛ رجاءَ أن ينفعَ الله بها، وقد تمَّ ذلك في حياته، وواصل الإخوةُ في الإذاعةِ بثَّها بعد وفاته مراتٍ عديدة، فجزاهم الله خيرًا.

وكان هذا الأمرُ حافزًا لعنايتي بهذا الموضوعِ الجليلِ المهم، من خلال خُطبِ الجمعة، فتم ذلك - بتوفيق الله- في سلسلةٍ مِن الخُطب استغرقت أربعَ جُمَعٍ أو تزيد[1]، وأُلقِيت تلك المادةُ أيضًا مِن خلالِ ثلاثِ محاضراتٍ، ثم في دورةٍ علميةٍ عُقِدت في كليةِ الشريعةِ بالقصيم.

ثم عمدتُ بعد ذلك - بعون الله ﷻ إلى إعادة صياغتِها، ومراجعتِها، وإعدادِها لتكونَ في هذا الكتابِ الذي بين يديك، وقد أسميتُه «إتحاف القارِي بوسائلِ التدبرِ لكلامِ البارِي»، وقد ذكرتُ في خاتمة هذا الكتاب نماذجَ من تدبر السلف الصالح للقرآن الكريم، وآثرتُ الاقتصارَ على الواضحِ البيِّنِ من ذلك، ترغيبًا في تدبر كلام الله - جلَّ وعلا- وتشويقًا إليه، وأمَّا ما يحتاج إلى طولِ فكرٍ

(١) وهي كلُّها موجودة على موقع البث الإسلامي، وروابطها على الشبكة العنكبوتية:
http://www.liveislam.net/browsearchive.php?id=95013

وقوةِ تأملٍ؛ فتركتُه لأهلِ الاختصاص؛ كمِثل ما ذَكَره العلَّامةُ الطاهرُ ابنُ عاشور رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [النحل:١٤]، والآية الأخرى التي في سورة فاطر: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر:١٢].

وقد قسّمته إلى أحد عشر فصلا:

- الفصل الأول: مقدمةٌ في بيان عظمة القرآن الكريم وتأثيره.
- الفصل الثاني: في تفاوت الناس تجاه القرآن.
- الفصل الثالث: في منزلة تدبر القرآن.
- الفصل الرابع: في أنَّ تدبر القرآن أصل صلاح القلب.
- الفصل الخامس: في كون الجميع مطالبين بتدبر القرآن.
- الفصل السادس: في أنَّ تدبر القرآن يقود إلى تعظيم الله الذي هو الغاية من الخلْق.
- الفصل السابع: في ذم الإعراض عن القرآن الكريم وشناعة ذلك.
- الفصل الثامن: في كيفية تدبر القرآن الكريم.
- الفصل التاسع: تنزيلُ الآياتِ القرآنيةِ على الحوادثِ النَّازلةِ والوقائِعِ الـمُستجدَّةِ.
- الفصل العاشر: وسائل تدبر القرآن الكريم.
- الفصل الحادي عشر: في ذِكر نماذج مِن تدبُّر السَّلف للقرآن الكريم.

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا العمل، ويجعله خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

ولا يفوتني هنا أنْ أسجل شكري الجزيل ودعواتي الصادقة لفضيلة شيخي الكريم الدكتور/ سليمان بن عبد العزيز العبوني – حفظه الله– الأستاذ المشارك في قسم النحو والصرف و فِقْه اللغة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض على تفضُّله بمراجعة هذه الرسالة وإتحافي بملحوظاته المهمة؛ فجزاه اللهُ خيرا وضاعَفَ مثُوبتَه.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين، وصلَّى اللهُ وسلَّم على عبده ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وكتبه/ عبد الرحمن بن عبد العزيز الدهامي

جوال: ٠٥٠٤٨٨٣٠٤٢

المملكة العربية السعودية – القصيم

البكيرية ص.ب. (١٧٧٧)

a.aldhamei@hotmail.com

الفصل الأول

مقدمة في بيان عظمة القرآن الكريم وتأثيره

الحمدُ لله رب العالمين، نوَّر بالقرآنِ القلوبَ، وأنزلَه في أوجزِ لفظٍ وأعجزِ أسلوب، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له، يسَّر القرآن للذِّكر لعلهم يتقون أو يُحدِثُ لهم ذِكْرًا فيحصلَ المطلوب، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، فتحَ بالقرآنِ مغاليقَ القلوب، صلّى اللهُ وسلَّمَ وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في الله حقَّ جهادِه وباتوا لربِّهم يُجافون عن المضاجع الجُنوبَ، ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الخلود، أما بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥].

«مَن قَالَ به صَدَق، ومَن عمِل به أُجِر، ومَنْ حَكمَ به عَدَل، ومَن دعا إليه هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتقِيمٍ»(١).

أعيا ببلاغته البلغاءَ، وحيَّر بحسنِ أسلوبِه أفئدةَ العقلاء، لا يملُّه قارئُه وسامعُه، بل كلما أكبَّ على تلاوته ازداد جِدةً وحلاوة، وغيرُه مِن الكلام يُعادَى

---

(١) جزء من حديث رواه الترمذي في فضائل القرآن، رقم (٢٩٠٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول»، وضعَّفه الألباني. لكنَّ معناه صحيح.

إذا أُعيد، ويُمَلُّ مع الترديد، ولهذا وُصِفَ القرآنُ المجيد بأنه لا يَخْلَق مع كثرةِ الترديد، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٠-٤٣].

هو الذي لم تنته الجنُّ إذ سمعتْه حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١ - ٢]، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الأحقاف: ٣٠].

وروى الإمامُ ابنُ جرير الطبري بإسنادِه إلى ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: دخلَ الوليدُ بنُ المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه يسألُه عن القرآنِ، فلما أخبَره خرجَ على قريشٍ، فقال : يا عجبًا لِـما يقولُ ابنُ أبي كبشةَ[1]، فوالله ما هو بشِعرٍ، ولا بسِحْرٍ، ولا بهذْيٍ مِن الجنونِ، وإنَّ قولَه لَـمِن كلامِ الله.

فلما سمِع بذلك النفرُ مِن قريشٍ ائْتمَروا، وقالوا: والله لئنْ صبأ الوليدُ، لتصبأنَّ قريشٌ. فلما سمع بذلك أبو جهل قال: أنا والله أكفِيكم شأنَه. فانطلقَ حتى دخلَ عليه بيتَه، فقال للوليد: ألم ترَ قومَك قد جمعوا لك الصدقةَ؟ قال: ألستُ أكثرَهم مالًا وولدًا؟ فقال له أبو جهل: يتحدثون أنَّك إنما تدخلُ على ابنِ أبي قحافةَ لتُصِيبَ مِن طعامِه. قال الوليد: قد تحدَّثَ بهذا عشيرتي؟ لا أقربُ أبا بكر ولا عمرَ ولا ابنَ أبي كبشة، وما قولُه إلا سِحرٌ يُؤثَر ؛ فأنزل الله على نبيِّه ﷺ : ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى ﴿لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر:١٢-٢٨].

---

(١) قال في «النهاية في غريب الحديث» (ص:٧٨٩): «كان المشركون يَنْسُبُون النبيَّ ﷺ إلى أبي كَبْشَة، وهو رجلٌ مِن خُزاعة خالَف قُريشًا في عِبادة الأوثان، وعَبد الشِّعْرَى العَبُورَ، فلمَّا خالفَهم النبيُّ ﷺ في عبَادة الأوثان شَبَّهُوه به. وقيل: إنه كان جَدَّ النبيِّ ﷺ من قِبَل أُمِّه، فأرادوا أنه نَزَعَ في الشَّبَه إليه».

قال قتادةُ: زعموا أنه قال: والله لقد نظرْتُ فيما قالَ هذا الرَّجلُ، فإذا هو ليس له بشِعْرٍ، وإنَّ له لحلاوةً، وإنَّ عليه لطَلاوةً، وإنه لَيعلو وما يُعلَى، وما أشكُّ أنه سِحْر، فأنزل اللهُ فيه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ الآية[المدثر:١٩](١).

ولهذا تحدَّى اللهُ -تعالى- الجنَّ والإنسَ مجتمعين أن يأتوا بمثل هذا الكتابِ الـمُبين، فقال أحكمُ الحاكمين: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨]، وهيهات، هيهات! أنْ يقوى الثقلان على مُعارضة هذا القرآن؛ فإنه كلامُ الكريم المنان.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود:١٣-١٤]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس:٣٨-٣٩]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود:١٧].

وكلُّ مَن سمِعَ بالقرآنِ، أو بلغَه القرآنُ، فقد قامت عليه حُجَّةُ الرحمن، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»(٢)، رواه مسلم.

---

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢٣/ ٤٢٩-٤٣٠).

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه مسلم في الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (١٥٣).

ولو أنصفَ الكفارُ مِن أنفسهم لأسلموا، ولِلحق سلَّموا، ولكنها الغشاوةُ التي غطَّت أبصارَهم، والأكِنَّةُ التي على قلوبهم، ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت:٣-٥].

ولقد أدرك الكفارُ تأثيرَ كلامِ العزيزِ الجبارِ على نفوس الفُجَّارِ، فضلًا عن الأبرارِ؛ فتواصوا بعَدمِ سماعه وصَرْفِ الناسِ عن لذيذِ خطابه؛ لئلا ينفذَ إلى القلوب، أو يؤثِّرَ في النفوس، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وقد حدّثنا القرآنُ الكريم عن تأثيرِه في طائفةٍ من النصارى، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٢-٨٣].

فلقد تجاوز تأثيرُ القرآن الكريم إلى غير المسلمين حينما أصغوا إليه مستمعين، ولهذا قال جُبيرُ بنُ مُطْعِمٍ ﷺ - وكان إذ ذاك مشركًا-: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]، كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ[١]، وفي رواية قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي.[٢]

قال الإمام الخطَّابي رحمه الله: «إنما كان انزعاجُه عند سماع هذه الآيةِ لحُسنِ تلقِّيه معنى الآية ومعرفتِه بما تضمّنته مِن بليغ الحُجَّة، فاستدركها بلطيفِ طبْعِه، واسْتَشَفَّ معناها بذكِي فهْمِه»[٣].

(١) رواه البخاري في التفسير، باب سورة ﴿وَٱلطُّورِ﴾، رقم (٤٨٥٤).
(٢) رواه البخاري في المغازي، باب، رقم (٤٠٢٣).
(٣) «الأسماء والصفات» للبيهقي، (٢/ ٢٧٠)، وينظر: «فتح الباري» (٨/ ٧٦٨).

وتأمّل- رحمك الله- هذا المشهدَ الجماعيَّ لتأثُّرِ المشركين بالقرآن الكريم، فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الـمُسْلِمُونَ وَالـمُشْرِكُونَ، وَالجِنُّ وَالإِنْسُ. رواه البخاري[1].

قال العلَّامةُ الألوسي رحمه الله في تفسيره: «يجوز أن يكونوا سجدوا لدهشةٍ أصابتهم وخوفٍ اعتراهم عند سماع السورةِ، لِـما فيها مِن قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم:٥٠-٥٤] إلى آخر الآيات، فاستشعروا نزولَ مثل ذلك بهم»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ النَّجْمَ بِمَكَّةَ، فَسَجَدَ فِيهَا وَسَجَدَ مَنْ مَعَهُ، غَيْرَ شَيْخٍ أَخَذَ كَفًّا مِنْ حَصًى أَوْ تُرَابٍ فَرَفَعَهُ إِلَى جَبْهَتِهِ، وَقَالَ: يَكْفِينِي هَذَا، فَرَأَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ قُتِلَ كَافِرًا»[3].

وهذا السجودُ الذي وقع من المشركين إنما وقع بسببِ سلطانِ القرآنِ العظيم، ودهشتِهم لروعةِ بيانه.

قال القاضي عياض رحمه الله: «وكان سبب سجودهم -فيما قال ابن مسعود- أنها كانت أول سورة نزلت فيها سجدة»[4].

وقد حدَث مثلُ هذا لغيرهم، كما حدَث لعتبةَ بنِ ربيعة حين سمِع مِن النبيِّ ﷺ سورة فصلت، ففي «المستدرك» عن جَابِرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه قال: اجْتَمَعَتْ

---

(١) رواه البخاري في سجود القرآن، باب سجود المسْلمين مع المشركين، رقم (١٠٧١).

(٢) «روح المعاني» (٩/ ٦٤٥).

(٣) رواه البخاري في سجود القرآن، باب ما جاء في سجود القرآن وسنتها، رقم (١٠٦٧)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب سجود التلاوة، رقم (٥٧٦).

(٤) «إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم» (٢/ ٥٢٥).

قُرَيْشٌ يَوْمًا، فَأَتَاهُ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ[1]؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَفَرَغْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿حمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣] فَقَالَ لَهُ عُتْبَةُ: حَسْبُكَ حَسْبُكَ، مَا عِنْدَكَ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: «لَا»، فَرَجَعَ عُتْبَةُ إِلَى قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: مَا وَرَاءَكَ؟ فَقَالَ: مَا تَرَكْتُ شَيْئًا أَرَى أَنَّكُمْ تُكَلِّمُونَهُ إِلَّا قَدْ كَلَّمْتُهُ، قَالُوا: فَهَلْ أَجَابَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَا وَالَّذِي نَصَبَهَا بَنِيَّةً[2] مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ غَيْرَ أَنَّهُ أَنْذَرَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ. قَالُوا: وَيْلَكَ يُكَلِّمُكَ رَجُلٌ بِالعَرَبِيَّةِ، وَلَا تَدْرِي مَا قَالَ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ مَا فَهِمْتُ شَيْئًا مِمَّا قَالَ، غَيْرَ ذِكْرِ الصَّاعِقَةِ[3].

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها في قصة هجرتهم إلى الحبشة واجتماعهم بالنجاشي، أنه قال لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ[4] عَنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالَتْ: فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ: نَعَمْ، فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: فَاقْرَأْهُ عَلَيَّ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ «كٓهيعٓصٓ»[5]، قَالَتْ: فَبَكَى - وَاللهِ- النَّجَاشِيُّ حَتَّى أَخْضَلَ لِحْيَتَهُ، وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا[6] مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ قَالَ النَّجَاشِيُّ:

---

(١) يعني: والد النبي ﷺ. في روايةٍ عند ابن أبي شيبة في «المصنف»(١٣/ ٢٠٨) رقم (٣٧٥٥٧)، وعنه أبو يعلى في «مسنده» (١٨١٨):«قال: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»، وعند البيهقيَ في «دلائل النبوة»(٢/ ٢٠٣): «قالَ له عُتبةُ: يا مُحَمَّدُ أنتَ خيرٌ أمْ هَاشِم؟ أنْتَ خيرٌ أمْ عبدُ المطلبِ؟ أنتَ خيرٌ أمْ عبدُ الله؟ فلم يُجبه».

(٢) بنيَّة: «يُريد الكعبة، وكانت تُدعَى بَنِيَّةَ إبراهيم - عليه السلام -؛ لأنه بناها، وقد كثُر قسَمُهم بربِّ هذه البَنِيَّة»، «النهاية في غريب الحديث» (ص:٩١).

(٣) «المستدرك» (٢/ ٣٠٤-٣٠٥) رقم (٣٠٦١)، وقال الذهبي في «التلخيص»: «صحيح».

(٤) يعني: رسولَ الله ﷺ.

(٥) أي: بسورة مريم.

(٦) أخضَلُوا مصاحفَهم: «أي: بلُّوها بالدُّموع»، «النهاية في غريب الحديث» (ص:٢٦٩).

إِنَّ هَذَا - وَاللهِ- وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ[١] وَاحِدَةٍ.[٢]

ولهذا فزعَ أشرافُ قريش حين رأوْا تأثيرَ القرآن في النفوس، كما ثبتَ في «صحيح البخاري» عن أمِّ المؤمنين عائشة ﵂ قالت: «فَلَمَّا ابْتُلِيَ الـمُسْلِمُونَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا قِبَلَ الحَبَشَةِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَرْكَ الغِمَـادِ[٣] لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ[٤]، وَهُوَ سَيِّدُ القَارَةِ[٥]، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ فِي الأَرْضِ فَأَعْبُدَ رَبِّـي، قَالَ ابْنُ الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ؛ فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ؛ فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ، فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَا يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلًا يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ؟ فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَةِ، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ، وَقَالُوا لِابْنِ الدَّغِنَةِ: مُرْ أَبَا بَكْرٍ، فَلْيَعْبُدْ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، **فَلْيُصَلِّ وَلْيَقْرَأْ مَا شَاءَ، وَلاَ يُؤْذِينَا بِذَلِكَ، وَلاَ يَسْتَعْلِنْ بِهِ؛ فَإِنَّا قَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ**

---

(١) «المِشكاةُ: الكُوَّةُ غير النافذة، وقيل: هي الحديدةُ التي يُعَلَّقُ عليها القِنديل. أراد أن القرآن والإنجيل كلامُ الله تعالى، وأنهما من شيءٍ واحد»،«النهاية في غريب الحديث» (ص:٨٧٢)، و«لسان العرب»(٧/ ١٦٣).

(٢) «رواه أحمد»: (٣/ ٢٦٦-٢٦٧) رقم (١٧٤٠).

(٣) «بَرْكَ الغِمادِ: تُفْتح الباء وتُكسر، وتُضَمّ الغَين وتُكسر، وهو اسم موضع باليمن. وقيل هو موضعٌ وراء مكة بخِمْس ليال»ا.هـ «النهاية في غريب الحديث» (ص:٧٤).

(٤) «ابن الدغنة: بضم المهملة والمعجمة وتشديد النون عند أهل اللغة (**الدُّغُنَّة**)، وعند الرواة بفتح أوله وكسر ثانيه وتخفيف النون (**الدَّغِنَة**)، وهي أمه وقيل أم أبيه وقيل دابته، ومعنى الدغنة المسترخية وأصلها الغمامة الكثيرة المطر، واختلف في اسمه قيل: أنه الحارث بن يزيد ، وقيل: اسمه مالك»ا.هـ مختصرا بتصرف يسير من «فتح الباري » للحافظ ابن حجر (٧/ ٢٩٠).

(٥) القارة: - بالقاف وتخفيف الراء- «قَبِيلة مِن بَني الهُون بن خُزَيْمة، سُمُّوا قارةً لاجْتِماعهم والْتِفافِهم ويُوصَفُون بالرَّمْي»ا.هـ «النهاية في غريب الحديث» (ص:٧٧٧).

أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا. قَالَ ذَلِكَ ابْنُ الدَّغِنَةِ لأَبِي بَكْرٍ، فَطَفِقَ أَبُو بَكْرٍ يَعْبُدُ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَلاَ يَسْتَعْلِنُ بِالصَّلاَةِ، وَلاَ القِرَاءَةِ فِي غَيْرِ دَارِهِ، ثُمَّ بَدَا لأَبِي بَكْرٍ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ وَبَرَزَ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ، وَيَقْرَأُ القُرْآنَ؛ فَيَتَقَصَّفُ[1] عَلَيْهِ نِسَاءُ المُشْرِكِينَ وَأَبْنَاؤُهُمْ، يَعْجَبُونَ وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَجُلًا بَكَّاءً، لَا يَمْلِكُ دَمْعَهُ حِينَ يَقْرَأُ القُرْآنَ، فَأَفْزَعَ ذَلِكَ أَشْرَافَ قُرَيْشٍ مِنَ المُشْرِكِينَ؛ فَأَرْسَلُوا إِلَى ابْنِ الدَّغِنَةِ فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا كُنَّا أَجَرْنَا أَبَا بَكْرٍ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ، وَإِنَّهُ جَاوَزَ ذَلِكَ فَابْتَنَى مَسْجِدًا بِفِنَاءِ دَارِهِ، وَأَعْلَنَ الصَّلاَةَ وَالقِرَاءَةَ، وَقَدْ خَشِينَا أَنْ يَفْتِنَ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَأْتِهِ، فَإِنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ فِي دَارِهِ فَعَلَ، وَإِنْ أَبَى إِلَّا أَنْ يُعْلِنَ ذَلِكَ فَسَلْهُ أَنْ يَرُدَّ إِلَيْكَ ذِمَّتَكَ، فَإِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نُخْفِرَكَ، وَلَسْنَا مُقِرِّينَ لأَبِي بَكْرٍ الِاسْتِعْلاَنَ...» الحديث[2].

نعم، هذا هو القرآنُ - يا أُمةَ القرآن- إذا أقبل عليه العبدُ بقلبه وأصغى إليه بسمعه، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

ولذا كان النبيُّ ﷺ يدعو الناس إلى الله تعالى بالقرآن الكريم؛ فقد أمره اللهُ تعالى أن يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢]، وأمَرَه سبحانه أن يقول: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

قال الحافظُ ابنُ رجبٍ رحمه الله: «وقد كان النبي ﷺ يدعو الخلْقَ بالقرآن إلى الدخول في الإسلام الذي هو الصراط المستقيم؛ وبذلك استجاب له خواصُّ المؤمنين كأكابر المهاجرين والأنصار، ولهذا المعنى قال مالكٌ: فُتِحت المدينةُ

---

(١) «فيتقصف: أي: يزدحمون عليه حتى يسقط بعضهم على بعضٍ فيكاد ينكسر» «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٧/ ٢٩١).

(٢) رواه البخاري في الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده، رقم (٢٢٩٧).

بالقرآن. يعني: أنَّ أهلها إنما دخلوا الإسلام بسماع القرآن. كما بعث النبيُّ ﷺ مصعبَ بنَ عمير قبل أن يُهاجِرَ إلى المدينة، فدعا أهلَ المدينةِ إلى الإسلام بتلاوة القرآنِ عليهم، فأسلمَ كثيرٌ منهم».[1]

ولهذا انطلق إخوانُنا مِن صالحي الجنِّ دعاةً إلى الله تعالى حينما خالط القرآنُ بشاشةَ قلوبهم الطيبة؛ كما قال سبحانه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٢].

وفي «الصحيحين» من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا عَلَيْهِ إِكَافٌ تَحْتَهُ قَطِيفَةٌ فَدَكِيَّةٌ[2]، وَأَرْدَفَ وَرَاءَهُ أُسَامَةَ، وَهُوَ يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الحَارِثِ بْنِ الخَزْرَجِ، وَذَاكَ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ، حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ أَخْلَاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَالمُشْرِكِينَ -عَبَدَةِ الأَوْثَانِ- وَاليَهُودِ، فِيهِمْ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ، وَفِي المَجْلِسِ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ المَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ[3]، خَمَّرَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى الله، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ القُرْآنَ، فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ أُبَيٍّ: أَيُّهَا المَرْءُ لَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا، إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا، فَلَا تُؤْذِنَا فِي مَجَالِسِنَا، وَارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ، فَمَنْ جَاءَكَ مِنَّا فَاقْصُصْ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ عَبْدُ الله بْنُ رَوَاحَةَ: اغْشَنَا فِي مَجَالِسِنَا فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. قَالَ:

---

(١) «مجموع رسائل الحافظ ابن رجب» (١/ ٢٠٦).

(٢) «الإكاف يلي الحمار، والقطيفة فوق الإكاف، والراكب فوق القطيفة، والإِكَاف - بكسر الهمزة وتخفيف الكاف- ما يُوضع على الدابة كالبرذعة، والقطيفة: كساء، وقوله: فدكية - بفتح الفاء والدال وكسر الكاف- نسبة إلى فدك القرية المشهورة- كأنها صنعت فيه»، ا.هـ من «فتح الباري»، (١٠/ ١٥٢).

(٣) «عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ: هو ما ارتفع من غبار حوافرها»، «شرح مسلم» للنووي، (١٢/ ١٥٨).

فَاسْتَبَّ المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَاليَهُودُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَتَوَاثَبُوا[١]، فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، ثُمَّ رَكِبَ دَابَّتَهُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ: «**أَي سَعْدُ، أَلَمْ تَسْمَعْ إِلَى مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ** -يُرِيدُ عَبْدَ الله بْنَ أُبَيٍّ- **قَالَ كَذَا وَكَذَا**». قَالَ: اعْفُ عَنْهُ يَا رَسُولَ الله وَاصْفَحْ، فَوَالله لَقَدْ أَعْطَاكَ اللهُ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَلَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ البُحَيْرَةِ[٢] أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالعِصَابَةِ[٣]، فَلَمَّا رَدَّ اللهُ ذَلِكَ بِالحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَهُ شَرِقَ[٤] بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ؛ فَعَفَا عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ »[٥].

وقد أشار الشيخُ عبدُ الرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ إلى الطُّرقِ التي في القرآنِ الكريمِ لِدَعوةِ الكُفَّارِ على اختلاف مِلَلِهِمْ ونِحَلِهِم، فقال: «يدْعُوهم إلى الدِّينِ الإسلامي والإيمانِ بمحمد ﷺ بما يصفُه مِن محاسِنِ شرْعِه ودِينِه، وما يذكرُه مِن براهينِ رِسَالةِ محمد ﷺ؛ لِيهتدي مَنْ قصْدُه الحقُّ والإنصافُ، وتقومُ الحُجَّةُ على المعَانِدِ.

وهذه أعظمُ طريقٍ يُدعى بها جميعُ المخَالِفين لِدِينِ الإسلام؛ فإنَّ محاسنَ دِينِ الإسلام ومحاسنَ النبيِّ ﷺ وآياتِه وبراهينَه فيها كفايةٌ تامةٌ للدعوة، بقطعِ النظرِ عن إبطَالِ شُبَهِهم وما يحتَجُّون به، فإنَّ الحقَّ إذا اتضحَ عُلِمَ أنَّ كلَّ ما خَالفَه فهو بَاطِلٌ وضلالٌ...

---

(١) «أي: قاربوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا» «فتح الباري» للحافظ ابن حجر، (٨/ ٢٩٢).

(٢) «البُحَيْرَة: مدينة الرسول ﷺ، وهو تصغير البَحْرة. وقد جاء في رواية مُكَبَّرا، والعرب تُسمِّي المُدُنَ والقُرى: البحارَ»، «النهاية في غريب الحديث» (ص:٦٤).

(٣) «معناه: اتفقوا على أن يجعلوه مَلِكَهم، وكان مِن عادتهم إذا مَلَّكُوا إنسانًا أنْ يُتَوِّجوه ويَعصبوه»، «شرح مسلم» للنووي، (١٢/ ١٥٨ - ١٥٩).

(٤) شَرِقَ: «بكسر الراء، أي: غَصَّ، ومعناه: حسدَ النبيَّ ﷺ؛ وكان ذلك بسبب نفاقِه، عافانا الله الكريم»، «شرح مسلم» للنووي، (١٢/ ١٥٩).

(٥) رواه البخاري في التفسير، باب ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران:١٨٦]، رقم (٤٥٦٦)، ومسلم، واللفظ له، في الجهاد والسير، باب في دعاء النبي ﷺ وصبره على أذى المنافقين، رقم (١٧٩٨).

ويدعوهم – أيضًا– بنحْو ما يدعو المؤمنينَ بِذِكْر آلائِه ونِعَمه، وأنَّ المنفردَ بالخَلْقِ والتدبيرِ والنِّعمِ الظاهرةِ والباطنة هو الذي يَجبُ على العِبادِ طاعتُه، وامتثالُ أمْرِه واجتنابُ نهْيِه.

ويدعوهم – أيضًا– بشَرْحِ ما في أديَانِهم الباطلةِ، وما احتوتْ عليه مِن القُبْحِ، والمقارنةِ بينها وبيْن دِينِ الإسْلامِ؛ لِيتَبيَّنَ ويتَّضِحَ ما يجبُ إيثارُه وما يتَعينُ اختيارُه.

ويدعُوهم بالتي هي أحسنُ، فإذا وصلَتْ بهم الحالُ إلى العِنادِ والمكَابَرةِ الظاهرةِ توعَّدهُم بالعقوباتِ الصَّوارِمِ، وبيَّن للناسِ طريقتَهم التي كانوا عليها، وأنهم لم يُخالِفوا الدِّينَ جهلاً وضلالاً، أو لِقيامِ شُبْهةٍ أوْجبَت لهم التَّوقفَ، وإنما ذلك جحودٌ ومُكابرةٌ وعِنادٌ . ويُبيِّنُ مع ذلك الأسبابَ التي منعتْهُم مِن متابعةِ الهدَى، وأنها رِيَاسَاتٌ وأغراضٌ نفْسِيةٌ، وأنهم لـمَّا آثروا الباطِلَ على الحقِّ طُبِعَ على قلوبِهم وخُتِمَ عليها، وسُدَّ عليهم طريقُ الهُدى عقوبةً لهم على إعرَاضِهم وتولِّيهم الشيطانَ، وتخلِّيهم مِن ولايةِ الرحمن، وأنَّه ولَّاهُم ما تَولَّوا لأنْفسِهم. وهذه المعاني الجزيلة مبسوطة في القرآن في مواضع كثيرة، فتأمل وتدبر القرآن تجدها واضحة جلية، والله أعلم»ا.هـ[1].

وكيف لا يُدعَى الخلقُ إلى الله -تعالى- بالقرآن، وهو الكتاب الذي قال فيه منزِّلُه سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

فإنَّ الجبَل في غِلْظته وقسَاوته لو فَهِم هذا القرآن فتدبر ما فيه؛ لخشَع.

(١) «القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن» (ص:٣٠-٣٢) مختصرا.

قال علَّامةُ الشام القاسمي رَحِمَهُ اللهُ في «محاسن التأويل»: «والغرضُ توبيخُ الإِنْسانِ على قسوةِ قلبه وقِلةِ تخشُّعِه عند تدبرِ القرآن، وتدبرِ قوارِعِه وزواجِره، ثم أشار -تعالى- إلى أنه كيف يُترك الخشوع لذات الله وأسمائه مع أنه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٤]».[1]

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد:٣١]. قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في معنى هذه الآية الكريمة: «لو كان في الكتب الماضية كتابٌ تُسَيَّرُ به الجبالُ عن أماكنها، أو تُقطَّعُ به الأرض وتَنشقُّ، أو تُكَلَّمُ به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره».[2]

وكما خشع البشرُ والحجرُ لكلام الله تعالى، فقد خشع الشجر؛ ففي «صحيح البخاري» عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «كَانَ المَسْجِدُ مَسْقُوفًا عَلَى جُذُوعٍ مِنْ نَخْلٍ، فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَقُومُ إِلَى جِذْعٍ مِنْهَا، فَلَمَّا صُنِعَ لَهُ المِنْبَرُ، وَكَانَ عَلَيْهِ، فَسَمِعْنَا لِذَلِكَ الجِذْعِ صَوْتًا كَصَوْتِ العِشَارِ[3]، حَتَّى جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، فَسَكَنَتْ».[4]

---

(١) «محاسن التأويل» (٧/ ٥٧٥٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٦٠).

(٣) «العشار: النُّوق الحوامِل، واحدتها: عشَراء، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرةُ أشهر، فتُسمّى بذلك حتى تضع، وبعد أنْ تضع» «فتح الباري» للحافظ ابن رجب (٥/ ٣٦٧).

(٤) رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٨٥).

وفي رواية: فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ، قَالَ: «**كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا**»(١).

أخي المبارك:

إنَّ تأثير القرآن العظيم أمرٌ مشهورٌ، و لا غرو في تأَثُّرِ نبينا ﷺ ، فإنه أعظمُ الناسِ تأثُّرًا بالقرآن، كيفَ لا، وهو الذي أنزله اللهُ تعالى على قلْبه، فكانت دموعُه تسيلُ عند سماعِ كلامِ الله، فعن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه قال: قال لِي النَّبِيُّ ﷺ : «**اقْرَأْ عَلَيَّ**»، قُلتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ، حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١]، قال: «**حَسْبُكَ الآنَ**»، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ. رواه الشيخان

وفي رواية مسلم: قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «**فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ**»(٢).

قال الإمامُ ابنُ بطال رحمه الله: «ألا ترى أنه عليه السَّلام بَكَى عندها، وبكاؤه إشارة منه إلى معنى الوعظ؛ لأنه مَثَّلَ لنفسه أهوالَ يومِ القيامةِ، وشدةَ الحالِ الداعيةِ له إلى شهادتِه لأُمَّتِه بتصديقِه، والإيمانِ به وسؤالِه الشفاعةَ لهم ليريحَهم مِن طولِ الموقفِ وأهوالِه، وهذا أمرٌ يحقُّ له طولُ البكاءِ والحزنِ».(٣)

---

(١) رواه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، رقم (٣٥٨٤).

(٢) رواه البخاري، واللفظ له، في فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك، رقم(٥٠٥٠)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع، والبكاء عند القراءة والتدبر، رقم (٨٠٠).

(٣) «شرح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٢٧٨- ٢٧٩).

واستظهر الحافظُ ابنُ حجر رَحِمَهُ اللَّهُ سببَ بكائه ﷺ فقال: «والذي يظهر أنه بكى رحمةً لأُمَّته؛ لأنه عَلِم أنه لا بد أن يشهدَ عليهم بعملِهم، وعملُهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يُفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم».(١)

وتأمل – رحمك الله- وصفَ القرآن لحَال أهل القرآن عند سماع القرآن: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

فقد بيَّنت الآيةُ الكريمة أنَّ أدلَّ الدلائلِ على الهدايةِ أنْ يكونَ المرءُ على هذه الصفةِ مِن القشعريرةِ التي تُصيبُ جِلْدَه عند آيات الوعيد؛ فإذا سمِع آيات الرجاء والوعد لَان جِلْدُه، واطمأن قلبُه؛ لِما يَفهم مِن الوعدِ والوعيدِ والتخويفِ والتهديدِ، وهذا هو حالُ المؤمن الحق؛ يسير إلى الله خائفًا راجيًا.

قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: هذه صفةُ مَن هداه اللهُ، ومَن كان على خلاف ذلك فهو ممَّن أضلَّه اللهُ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[الرعد:٣٣]»(٢).

قال تعالى واصفًا عبادَ الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]. قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لم يكونوا عند سماعِها متشاغلين لاهين عنها، بل مُصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجدون عندها عن بصيرةٍ، لا عن جهلٍ ومتابعةٍ لغيرهم»(٣).

فكيف لا نبكي نحن على أنفسنا بإعراضِنا عن كلامِ ربنا، وانشغالِنا عنه برخيص دُنيانا، وقد أنزلَه اللهُ -تعالى- لهدايتنا ورحمتنا وعزنا وسعادتنا؟

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ١٢٤).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٥).
(٣) «المصدر السابق» (٧/ ٩٤).

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت:٥١]. بلى والله، إنَّ ذلك لكافٍ، قال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «لو فكَّر الناسُ كلُّهم في سورةِ العصرِ لكَفتْهم»[١]، قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وهو كما قال»[٢].

فكيف وقد أنزل اللهُ - جلَّ وعَلا - هذه السُّورَ العظيمة؟!

وصدَق اللهُ العظيمُ إذ يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]. فيا ويح مَن أعرضَ عن القرآن وطلب الهُدى في غيره!

وتأمل - رحمك الله - كيف جاء وَصْفُ القرآنِ بأنَّه شفاءٌ، ولم يُوصَفْ بأنَّه دواءٌ؛ لأنَّ الدواءَ قد يُفيدُ وقد لا يفيدُ، بل قد يَضرُّ، بخلاف الشِّفاء فإنَّه ثمرةُ الدَّواء؛ فالقرآنُ الكريمُ رحمةٌ للناس، لكنهم اختلفوا في قَبولِ هذه الرَّحمةِ؛ فمَن قَبِلَها لِطِيبِ قلْبِه، وصَلاحِ أرضه، انتفعَ وارتفعَ، وصار القرآنُ حجةً له، وشفاءً من أمراض الشبهات والشهوات، ومَن لم يرفع بذلك رأسًا - والعياذ بالله - أضله الله جزاءً وِفاقًا؛ فكلُّ مَن ابتغى الـهُدى بغير القرآن فإنَّ اللهَ يُضلُّه، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦-٣٧].

وفي الخبر: «مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ» رواه الترمذي[٣].

---

(١) ينظر: «المصدر السابق» (٨/ ٤٧٩).

(٢) «الاستقامة»، (٢/ ٢٥٩).

(٣) جزء من حديث رواه الترمذي في فضائل القرآن، رقم (٢٩٠٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسناده مجهول»، وضعَّفه الألباني. لكنَّ معناه صحيح.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: «ولذا تجدُ مَن أكثرَ مِن سماعِ القصائد لطلبِ صلاحِ قلبِه، تنقصُ رغبتُه في سماعِ القرآنِ، حتى ربما كرِهه»(١).

هذا وهو يريدُ الاتعاظَ والاستهداء، فكيف بِمَن كان سماعُه القصائدَ مجرَّدًا مِن ذلك.

ومِن بركات هذا القرآن ما ثبت مِن «شفائه للأسقام وتسكينه للآلام»، فعن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه قال: «انْطَلَقَ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفْرَةٍ سَافَرُوهَا، حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ العَرَبِ، فَاسْتَضَافُوهُمْ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمْ، فَلُدِغَ سَيِّدُ ذَلِكَ الحَيِّ؛ فَسَعَوْا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَا يَنْفَعُهُ شَيْءٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَوْ أَتَيْتُمْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطَ الَّذِينَ نَزَلُوا لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ شَيْءٌ، فَأَتَوْهُمْ فَقَالُوا: يَا أَيُّهَا الرَّهْطُ، إِنَّ سَيِّدَنَا لُدِغَ، وَسَعَيْنَا لَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ لَا يَنْفَعُهُ، فَهَل عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: نَعَمْ، وَاللهِ إِنِّي لأَرْقِي، وَلَكِنْ وَاللهِ لَقَدِ اسْتَضَفْنَاكُمْ فَلَمْ تُضِيِّفُونَا، فَمَا أَنَا بِرَاقٍ لَكُمْ حَتَّى تَجْعَلُوا لَنَا جُعْلًا، فَصَالَحُوهُمْ عَلَى قَطِيعٍ مِنَ الغَنَمِ، فَانْطَلَقَ يَتْفِلُ عَلَيْهِ وَيَقْرَأُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ فَكَأَنَّمَا نُشِطَ مِنْ عِقَالٍ(٢)، فَانْطَلَقَ يَمْشِي وَمَا بِهِ قَلَبَةٌ(٣). قَالَ: فَأَوْفَوْهُمْ جُعْلَهُمُ الَّذِي صَالَحُوهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالَ بَعْضُهُم: اقْسِمُوا، فَقَالَ الَّذِي رَقَى: لَا تَفْعَلُوا، حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ ﷺ فَنَذْكُرَ لَهُ الَّذِي كَانَ، فَنَنْظُرَ مَا يَأْمُرُنَا، فَقَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرُوا لَهُ، فَقَالَ: «وَمَا يُدْرِيكَ

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٥٤٣).

(٢) نُشِط مِن عِقال: «أي حُلَّ مِن وِثاق» «معالم السنن» للخطابي(٣/ ١٠٢)، و«عِقال - بكسر المهملة بعدها قاف-: هو الحبل الذي يُشدُّ به ذراعُ البهيمة» «فتح الباري» لابن حجر(٤/ ٥٧٦).

(٣) «قَلَبة: أي: ألَمٌ وعِلَّة» «النهاية في غريب الحديث» (ص:٧٦٧)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح»، (١٠/ ٢٥٩): «قَلَبة - بفتح اللام بعدها موحدة-: أي: ما به ألم يُقلب لأجله على الفراش، وقيل: أصله من القُلاب - بضم القاف - وهو داءٌ يأخذ البعير فيمسك على قلبه؛ فيموت من يومه».

أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»، ثُمَّ قَالَ: «قَدْ أَصَبْتُمْ، اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا»، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ[1]. رواه الشيخان.

قال العلّامةُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «تضمَّن هذا الحديثُ حصولَ شفاءِ هذا اللديغ بقراءة الفاتحةِ عليه؛ فأغنَته عن الدواءِ، وربما بلَغَت مِن شفائِه ما لم يبلغْه الدواءُ، هذا مع كونِ المحلِ غيرَ قَابلٍ، إمَّا لكون هؤلاء الحيِّ غيرَ مسلمين، أو أهلَ بُخل ولؤم، فكيف إذا كان المحَلُّ قَابلًا؟»[2].

فبَرَكَةُ القرآنِ الكريمِ عامةٌ، قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٥٠]، قال العلَّامةُ الطاهرُ ابنُ عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَوَصْفُ القرآنِ بالمباركِ يعمُّ نواحي الخيرِ كلِّها؛ لأنَّ البركةَ زيادةُ الخيْرِ؛ فالقرآنُ كلُّه خيرٌ مِن جهةِ بلاغةِ ألفاظِه وحُسْنها، وسُرعةِ حِفْظِه وسهولَةِ تلاوتِه، وهو أيضًا خيرٌ لِـما اشتمل عليه مِن أفنانِ الكَلامِ والحِكمَة والشَّريعةِ واللَّطائفِ البلاغيةِ، وهو في ذلك كلِّه آيةٌ على صِدْق الذي جاء به؛ لأنَّ البشرَ عجزوا عن الإتيان بمثله، وتحدَّاهم النبيُّ ﷺ بذلك فما استطَاعُوا»[3].

وقال الإمامُ السُّيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّ كتابنَا القرآنَ لهو مَفْجَرُ العلوم ومنبعُها، ودائرةُ شمسِها ومطلعُها، أوْدَعَ فيه سبحانه عِلْمَ كلِّ شيءٍ، وأبَانَ فيه كلَّ هُدىً وغيٍّ، فَتَرى كلَّ ذي فنٍّ مِنه يَسْتمِدُّ، وعليه يعتمِدُ، فالفقيه يستنبطُ منه الأحكامَ، ويستخرِجُ عِلْمَ الحلالِ والحرامِ، والنَّحْويُّ يبني منه قواعِدَ إعرابِه، ويرجعُ إليه في معرفةِ خَطأ القولِ مِن صوابِه، والبَيانيُّ يهتدي به إلى حُسْنِ النِّظامِ، ويعتبرُ مسالكَ

(١) رواه البخاري، واللفظ له، في الإجارة، باب ما يُعطَى في الرُّقية على أحياء العرب بفاتحةِ الكتاب، رقم (٢٢٧٦)، ومسلم في السلام، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن والأذكار، رقم (٢٢٠١).

(٢) «مدارج السالكين»، (١/ ٢٩٠).

(٣) «التحرير والتنوير» (مجلد٧، ١٧/ ٩١).

البلاغةِ في صَوْغِ الكلامِ، وفيه مِن القَصصِ والأخبارِ ما يُذَكِّرُ أُولي الأبصارِ، ومِن المواعظِ والأمثالِ ما يزدَجِرُ به أولو الفِكْرِ والاعتبارِ، إلى غير ذلك مِن علومٍ لا يَقْدِرُ قدْرَها إلا مَن عَلِمَ حصرَها، هذا مع فصاحةِ لفظٍ، وبَلاغةِ أُسلوبٍ، تَبْهَرُ العقولَ، وتَسْلُبُ القلوبَ، وإعجازِ نَظْمٍ لا يَقْدِرُ عليه إلا عَلَّامُ الغُيوبِ»[١].

ومِن بركات القرآن: «زيادةُ الحسنات بتلاوته»، قال النبيُّ ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ الله فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»**[٢]، رواه الترمذي.

وبناءً على هذا فإنَّ في القرآنِ الكريمِ ما يزيدُ على ثلاثةِ ملايين حسنة، ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[البقرة: ٢٦١]؛ لأنَّ حروفَ القرآن كما نُقِلَ عن مجاهد أنَّه قال: «هذا ما أحصينا مِن القرآن، وهو: ثلاثُ مئةِ ألف حرفٍ، وأحدٌ وعشرون ألف حرفٍ، ومئةٌ وثمانيةٌ وثمانون حرفًا»[٣].

قال العلَّامةُ الطاهرُ ابنُ عاشور رَحِمَهُ اللهُ: «والقرآنُ مباركٌ لأنه يدلُ على الخيرِ العظيمِ، فالْبَرَكةُ كائنةٌ به، فكأنَّ البركةَ جُعِلَتْ في ألفاظِه، ولأنَّ اللهَ تعالى قد أَوْدعَ فيه بركةً لقارئِه المشتغلِ به، بركةً في الدنيا وفي الآخرة، ولأنَّه مشتملٌ على ما في العمل به كمالُ النفْسِ وطهارتُها بالمعارفِ النظريةِ ثم العمليةِ، فكانت البَركةُ ملازمةً لقراءتِه وفهومِه»[٤].

---

(١) «الإتقان في علوم القرآن» (١/ ٤).

(٢) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رواه الترمذي في ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ماله من الأجر، رقم (٢٩١٠)، وصحَّحه الألباني.

(٣) رواه الحافظ أبو عمرو الداني –بسنده– في كتابه «البيان في عدِّ آي القرآن»، (ص:٧٥)، وينظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٩٨-٩٩)، غير أنَّ فيه: «... ومئةٌ وثمانون حرفا».

(٤) «التحرير والتنوير» (مجلد ٣، ٧/ ٣٧٠).

والقرآن الكريم مباركٌ في العملِ به أيضًا؛ فمَن أراد الخيرَ والطمأنينةَ والسعادةَ، والسلامةَ مِن كلِّ ما أهمَّه، فعليه بهذا القرآن؛ لأنه كلامُ الله - جلَّ وعلا-؛ الذي جعله شِفاءً ونورًا وحياةً، فالإنسان بدون القرآنِ ضالٌّ بل ميتٌ؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠]، وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

ومِن بركاتِ القرآنِ التي تَعُودُ على صاحبِه في الدنيا والآخرة: أنَّ مَن شغَلَه القرآنُ، كان جديرًا بتوفيقِ الله تعالى له بحُسْن الخاتمة، بل ربما فارقَ الدنيا وهو يقرأُ القرآنَ كما جرى ذلك لكثيرٍ مِن الصالحين، ويَعرفُ الناسُ مِن هذا شيئًا كثيرًا إلى يومنا هذا.

قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ متحدثًا عن أيَّامِ شيخِه - شيخِ الإسلام ابن تيمية- الأخيرةِ، والتي قضاها في سجن القلعة، وتوفي فيها، قال: «كشفتُ عن وجه الشيخِ، ونظرتُ إليه وقبَّلْتُه...، وأخبر الحاضرين أخوه زينُ الدِّين عبدُ الرحمن أنه قرأَ هو والشيخُ منذ دخلَ القلعةَ ثمانين ختمةً، وشَرَعَا في الحادية والثمانين، قال: فانتهينا فيها إلى آخر اقتربت السَّاعة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر:٥٤-٥٥]، فشَرعَ عند ذلك الشيخان الصالحان الخيِّران عبدُالله بنُ المحِب وعبدُالله الزُّرْعيُّ الضرير- وكان الشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ يحبُّ قراءتَهما - فابتدآ مِن أوَّلِ سورةِ الرحمن حتى ختما القرآنَ، وأنا حاضِرٌ أسمعُ

وأرى، ثم شرَعوا في غسْل الشيخ، ... » الخ ما ذَكرَه الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ في «البداية والنهاية»[1].

فبَركةُ القرآن لا نهايةَ لها، نسألُ اللهَ أن يباركَ لنا في كتابِه وسُنَّةِ نبيِه.

*****

---

(١) «البداية والنهاية» (١٨/ ٣٠٠).

الفصل الثاني

في تفاوت الناس تجاه القرآن

اعلم أنَّ الناسَ متفاوتون تفاوتًا كبيرًا تجاه القرآنِ الكريم، وقد قسَّمَ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ النَّاسَ بالنسبةِ إلى القرآن أربعةَ أصناف كما ورَد ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ فقال: «صِنفٌ معْرِضٌ ممتنعٌ عن سماعِه، كالذين قال فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦].

وصِنفٌ سمِعَ الصوتَ ولم يفقه المعنى، كالذين قال فيهم: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣]، قال ذلك بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢٠-٢١]، وهذا نظيرُ ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»**[(١)].

وهذه الآيةُ والحديثُ يدلان على أنَّ مَن لم يحصل له السماعُ الذي يفقه معه القولَ؛ فإنَّ اللهَ لم يعلم فيه خيرًا، ولم يُرِد به خيرًا، وأنَّ مَنْ علِمَ اللهُ فيه خيرًا، أو أرادَ به خيرًا، فلا بد أن يُسمِعَه ويُفقِّهَه. ودلَّت الآيةُ على أنَّه ليس لكلِّ مَن سمِعَ وَفقِه يكونُ فيه خيرٌ؛ بل قد يَفقَهُ ولا يعملُ بعلمِه فلا ينتفعُ به، فلا يكون فيه خيرٌ.

وصِنفٌ سمِعَ الكلامَ وفقِهَه لكنه لم يقْبلْه، ولم يُطِعْ أمرَه، كاليهودِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ

---

(١) حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: رواه البخاري في العلم، باب مَن يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم (٧١)، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم (١٠٣٧).

مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٧٥]، إلى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة:٧٨]: أي: تلاوة.

وصِنفٌ سمِعُوا سَماعَ فِقهٍ وقَبولٍ، فهذا هو السَّماعُ المأمورُ به، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]»[1]، جعلنا اللهُ منهم بمنِّه وكَرَمِه، آمين.

ولقد مثَّل النبيُّ ﷺ حالَ الناسِ مع القرآن أروعَ تمثيل فقال ﷺ: «**مَثَلُ الـمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الأُتْرُجَّةِ**[2]**؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الـمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ التَّمْرَةِ؛ لَا رِيحَ لَهَا، وَطَعْمُهَا حُلوٌ، وَمَثَلُ الـمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ؛ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الـمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ؛ لَيْسَ لَهَا رِيحٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ**»[3]، رواه الشيخان.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٨-١٤) بتصرف.

(٢) الأُتْرُجَّة: «بضم الهمزة والراء بينهما مثناة ساكنة وآخره جيم ثقيلة وقد تُخفَّف ويُزاد قبلها نون ساكنة... وقيل الحكمة في تخصيص الأترجة بالتمثيل دون غيرها من الفاكهة التي تجمع طيب الطعم والريح كالتفاحة؛ لأنه يُتداوى بقشرها، وهو مفرح بالخاصية، ويستخرج من حبِّها دهن له منافع، وقيل: إن الجن لا تقرب البيت الذي فيه الأترج، فناسب أن يُمثَّل به القرآن الذي لا تقربه الشياطين، وغلاف حبِّه أبيض فيناسب قلبَ المؤمن، وفيها أيضا من المزايا: كِبر جرمها وحُسْن منظرها وتفريح لونها ولِين ملمسها، وفي أكلها مع الالتذاذ طِيب نكهة ودِباغ معدة وجودة هضم، ولها منافع أخرى» ا.هـ مختصرًا من «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (٩/ ٨٤).

(٣) حديث أبي موسى الأشعري ﷺ: رواه البخاري في الأطعمة، باب ذِكر الطعام، رقم (٥٤٢٧)- ومسلم، واللفظ له، في صلاة المسافرين، باب فضيلة حافظ القرآن، رقم (٧٩٧).

وصدَقَ اللهُ العظيمُ إذ يقول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:٥٨].

قال الإمامُ ابن القيم رحمه الله في مَعرضِ ذِكْره لمنافعِ الأُتْرُجِّ: «وحقيقٌ بشيءٍ هذه منافعُه أن يُشَبَّه به خلاصةُ الوجود، وهو المؤمنُ الذي يقرأ القرآن، وكان بعضُ السَّلَفِ يُحِبُّ النظرَ إليه لما في مَنْظرِه مِن التفريح»(١).

فشبَّه النبيُّ ﷺ ما بعثَه اللهُ به مِن الهدى والعلمِ بالغيثِ، وشبَّه القلوبَ بالأرض على اختلاف صفاتها؛ فأرضٌ طيبة وأرضٌ خبيثة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللهُ عز وجل بِهِ مِنَ الـهُدَى وَالعِلمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الـمَاءَ؛ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الـمَاءَ؛ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّـمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ الله، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلتُ بِهِ»**(٢)، رواه الشيخان.

فتأمل - أخي الكريم- في هذا المثَل العظيم الذي ضربَه النبيُّ ﷺ مُشَبِّهًا هذا الوحيَ النازلَ مِن السماءِ على قلْبِه ﷺ بالماءِ النَّازلِ على هذه الأرض؛ فالماءُ النازلُ واحدٌ، ولكنَّ الأرضَ متباينةٌ تباينًا كثيرًا، فبحسب طِيبِها ولِينِها تنتفعُ بالماء؛ فإنْ كانت طيبةً قَبِلَت الماءَ وأنبتَت الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وإنْ كانت خبيثةً ونَزَلَ عليها الماءُ فلن تستفيد منه؛ فإنَّها لا تُنبت كلأً، ولا تُمسك ماءً، كذلك القرآنُ

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٦٢).

(٢) رواه البخاري في العلم، باب فضل من عَلِمَ وعَلَّمَ، رقم (٧٩)، ومسلم، واللفظ له، في الفضائل، باب بيان مثل ما بعث النبي ﷺ من الهدى والعلم، رقم (٢٢٨٢).

الكريمُ مع القلوبِ؛ فمَن كانت أرضُ قلْبِهِ طيبةً انتفع بهذا القرآن، ومَن كانت أرضُ قلْبه خبيثةً لم ينتفعْ به، بل يكونُ حجةً عليه، كما قالَ اللهُ جلَّ وعَلا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

*****

الفصل الثالث

في منزلة تدبر القرآن الكريم

اعلم أنَّ تَدبُّرَ القرآن الكريم فريضةٌ مِن فرائضِ الدِّين، وعلى ذلك أطْبقَ جمهورُ المفَسِّرين، ومَن قرأَ القرآنَ وتدبَّره، وصلَ بذلك التدبر إلى درجة اليقين؛ لأنه يراه يُصدِّقُ بعضُه بعضًا، فلا يتناقض، ولا يختلف أبدًا.

فلا يمكنُ بحالٍ أن تجدَ آيةً تخالِفُ الأخرى أو تناقضُها، و بهذا يزدادُ المؤمنُ إيمانًا مع إيمانِه حين يرى القرآنَ بهذه المثابةِ، تُكرَّرُ القصةُ مثلًا بأساليبَ متنوعة -طُولًا وقِصَرًا-، ومع ذلك لا يمكنُ أن يكونَ بينها أدنى أدنى شيءٍ من التناقضِ أو الاختلافِ، وصدقَ اللهُ العظيم إذ يقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، وقال سبحانه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢]، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل:١٠٢].

فالقرآنُ الكريمُ حقٌّ ونزلَ بالحقِّ، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء:١٠٥].

ومما يدلُّ على عظيمِ منزلةِ تدبرِ القرآن الكريم أنَّه مِن النصيحةِ لكتابِ الله، التي هي الدِّين، قال النبيُّ ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِـمَنْ؟ قال: «**لله وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»، رواه مسلم[1].

---

(١) حديث تميم بن أوس الداري ﷺ: رواه مسلم في الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، رقم (٥٥).

وقد بيَّن الحافظُ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ معنى النصيحة لكتاب الله[1]، فقال: «وأما النصيحةُ لكتابِ الله: فشدةُ حبِّه وتعظيمُ قدْرِه، إذ هو كلامُ الخالق، وشدةُ الرغبة في فهمِه، وشدةُ العنايةِ لتدبُّرِه، والوقوفُ عند تلاوتِه لِطلب معاني ما أحبَّ مولاه أنْ يفهمَه عنه، ويقوم به له بعدَ ما يفهمه.

وكذلك الناصحُ مِن العباد يتفهمُ وَصِيَّةَ مَن ينصحُه، وإنْ ورَد عليه كتابٌ منه عُنِي بفهمِه ليقومَ عليه بما كتبَ به فيه إليه، فكذلك الناصحُ لِكتابِ ربِّه يُعنى بفهمِه؛ ليقومَ لله بما أَمرَ به كما يحبُّ ويَرضى، ثم يَنْشُرَ ما فَهِمَ في العبادِ، ويُديمَ دراستَه بالمحبةِ له والتخلُّقِ بأخلاقِه والتأدُّبِ بآدابِه».[2]

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «يجب أن يُعْلمَ أنَّ النبيَّ ﷺ بيَّنَ لأصحابِه معانيَ القرآنِ كما بيَّنَ لهم ألفاظَه، فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، يتناولُ هذا وهذا. وقد قال أبو عبدِ الرحمن السُّلَمِيُّ: حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانِ بْنِ عفان وَعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهَا، حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»[3]؛ ولهذا كانوا يَبقون مدةً في حفظِ السُّورةِ. وقال أنسٌ: كان الرجلُ إذا قرأ البقرةَ وآلَ عمران جَلَّ في أعينِنا. وأقام ابنُ عمرَ على حفظِ البقرةِ عدةَ سنينَ، قيل: ثمانِ سنين، ذكرَه مالك. وذلك أنَّ اللهَ تعالى

---

(١) قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في «المجموع» (٢/ ١٣٦-١٣٧): «نصيحةُ كتاب الله تعالى هي: الإيمانُ بأنه كلامُ الله تعالى وتنزيلُه، لا يُشبهه شيءٌ مِن كلام الخلْق، ولا يَقدر الخلْقُ على مِثل سورةٍ منه، وتلاوتُه حقَّ تلاوتِه، وتحسينُها وتدبُّرها والخشوعُ عندها، وإقامةُ حروفِه في التلاوة، والذبُّ عنه لتأويل المحرِّفين وتعرُّض الملحدين، والتصديقُ بما فيه، والوقوفُ مع أحكامه، وتفهُّم علومِه وأمثالِه، والاعتبارُ بمواعظه، والتفكرُ في عجائبه، والبحثُ عن عمومِه وخصوصِه وناسخِه ومنسوخِه ومُجْمَله ومبيَّنه، وغير ذلك مِن أقسامه، ونشر علومه، والدعاء إليه، وإلى جميع ما ذكرنا مِن نصيحته».

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص:١٥٣).

(٣) ينظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ٧٤)، ونحوه في «المسند» رقم (٢٣٤٨٢).

قال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[ص:٢٩] ، وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء:٨٢]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون:٦٨].

وتدبُّرُ الكلام بدون فهمِ معانيه لا يُمْكن... فالعادةُ تمنع أن يقرأَ قومٌ كتابًا في فنٍّ مِن العلم، كالطب، والحساب، ولا يستشرحُوه، فكيف بكلامِ الله الذي هو عِصمتُهم، وبه نجاتُهم وسعادتُهم، وقِيامُ دينِهم ودُنياهم؟»[١].

ولهذا كَرِه أهلُ العلمِ قراءةَ القرآن الكريم بلا تدبُّرٍ ولا تفهُّمٍ، قال الإمامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «تُكرهُ قراءةُ القرآنِ بلا تدبر، وعليه حمل حديث عبد الله بن عمرو: «**لاَ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ**»[٢]، وقال ابن مسعود لِـمَن أخبره أنه يقوم بالقرآن في ليلة[٣]: «**أَهَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ؟**»[٤]، وكذلك قولُه ﷺ في صفة الخوارج: «**يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ وَلَا حَناجِرَهُم**»[٥] ذَمَّهُم بإحْكام ألفاظِه وترْكِ التفهُّمِ لمعَانيه».[٦]

---

(١) «مقدمة في التفسير» (ص:٣٦-٣٧)، «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣١-٣٣٢)

(٢) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: رواه أبو داود في أبواب قراءة القرآن وتحزيبه، باب تحزيب القرآن، رقم (١٣٩٤)، والترمذي في القراءات، باب، رقم (٢٩٤٩)، وصحَّحه الألباني.

(٣) الذي في الصحيحين أنَّ القائل قال: «إِنِّي قَرَأْتُ الْـمُفَصَّلَ اللَّيْلَةَ كُلَّهُ فِي رَكْعَةٍ».

(٤) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رواه البخاري في الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، رقم (٧٧٥)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ وهو الإفراط في السرعة، رقم (٨٢٢).

(٥) رواه ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه بهذا اللفظ، غير أنَّ فيه: «لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ وَلا حَنَاجِرَهُمْ»، باب في ذكر الخوارج ، رقم (١٧٥).

وفي الصحيحين «البخاري: رقم (٣٦١٠)، ومسلم: رقم (١٠٦٤)» نحوه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ومن حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه «البخاري: رقم (٦٩٣٤) ، ومسلم: رقم (١٠٦٨)». وعند مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما رقم (١٠٦٣)، وأبي ذر رضي الله عنه رقم (١٠٦٦)، وعليٍّ رضي الله عنه رقم (١٠٦٧).

والفاظه مختلفة: «لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ»، «لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»، «لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»، «لاَ يُجَاوِزُ حَلاَقِيمَهُمْ».

(٦) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٦٤١- ٦٤٢).

قال شيخُ الإسلامِ رَحِمَهُ اللهُ: «والمطلوبُ مِن القرآن هو فهْمُ معانيه والعملُ به، فإنْ لم تكن هذه همةُ حافظه، لم يكن مِن أهلِ العِلمِ والدِّين».[1]

وقال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ : «ولهذا كان أهلُ القرآن هم العالمون به، والعاملون بما فيه وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما مَن حفظه ولم يفهمه ولم يعمل بما فيه فليس من أهله، وإنْ أقام حروفَه إقامةَ السَّهم».[2]

وما ذكره العلّامة ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ ظاهرٌ جليٌّ، يدل عليه قولُ النبي ﷺ: **«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ[3]، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[4]، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»**[5]، رواه مسلم.

إذًا يجبُ أنْ تكونَ همّةُ حافظِ القرآنِ فهْمَ المعنى ومِن ثمَّ العمل، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

فحاسب نفسكَ – يا عبدَ الله– ما نصيبُك مِن تدبُّرِ ما تتلو مِن كلامِ ربك، قال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/ ٥٥).

(٢) «زاد المعاد» (١/ ٣٢٧).

(٣) «الظُّلَّة: بضم الظاء المعجمة، أي سحابة لها ظِل، وكلُّ ما أظلَّ مِن سقيفةٍ ونحوها يُسمَّى: ظُلَّة»، «فتح الباري» لابن حجر (١٢/ ٥٤٢)، «شَرَق: هُوَ – بِفتحِ الرَّاء وإِسكانها– أي: ضياء ونور»، «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٩١).

(٤) «قوله ﷺ : «كَأَنَّهما حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَافٍّ»، وفي الرِّواية الأخرى: «أَوْ كَأَنَّهما فِرْقَان مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ»، الْحِزْقَان: بِكسرِ الحاء المـهْمَلة وإسكان الزَّاي، والْفِرْقَان– بكسرِ الفاء وإسكان الرَّاء ومعناهما واحد– وهما قَطِيعَانِ وجماعتَانِ، يُقال في الواحد: فِرْق وحِزْق وحَزِيقَة، أي: جماعة» «شرح مسلم» للنووي (٦/ ٩٠– ٩١)، «صواف: أي باسِطاتٍ أجنحتَها في الطَّيران، والصَّوافُّ: جمع صافَّة» «النهاية في غريب الحديث»، (ص:٥٢٠).

(٥) حديث النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه: رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، رقم (٨٠٥).

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «مَا كَان بيْن إسْلامِنا وبيْن أنْ عاتبَنا اللهُ بهذِه الآيةِ إلَّا أربعُ سِنين»[1]، قال الحسن[2]: «يستبطئهم، وهم أحبُّ خلقه إليه»[3].

قال العلَّامة الطاهرُ ابنُ عاشور رحمه الله: «والمقصود مِن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إمَّا بعضٌ منهم ربما كانوا مُقصِّرين عن جمهورِ المؤمنينَ يومئذ بمكة، فأراد اللهُ إيقاظَ قلوبِهم بهذا الكلامِ المجْمَلِ على عَادةِ القرآن، وأقوالِ الرسولِ ﷺ في التعريضِ مثل قولِه: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَفْعَلُونَ كَذَا»، وقولِه تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران:١٥٤]، وليس ما قالَه ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه مُقتضيًا أنَّ مِثلَه مِن أولئك الذين ذَكرَهُم اللهُ بهذه الآية، ولكنَّه يَخْشَى منهم حَذرًا وحَيطةً... وإمَّا أنْ يكونَ تحريضًا للمؤمنين على مُراقبةِ ذلك والحذرِ مِن التقصيرِ»[4].

وهذا يدلُّ على أنَّ خِيارَ الخَلْقِ مُخاطَبُون بالتحذيرِ مِن الإخْلال بحقِّ القرآنِ مِن الخشوعِ والتدبُّرِ؛ ففي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنَّه بعثَ إلى قُرَّاءِ أهلِ البصرةِ، فدخلَ عليهِ ثلاثُ مِئةِ رَجلٍ قد قرؤُوا القرآنَ، فقال: أنتمْ خِيارُ أهلِ البصرةِ وقُرَّاؤُهمْ، فاتلُوهُ، ولا يَطُولَنَّ عليكُم الأمدُ فَتقْسُوَ قلوبُكمْ كما قستْ قلوبُ مَن كان قبلَكمْ» رواه مسلم[5].

---

(١) رواه مسلم في التفسير، باب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، رقم (٣٠٢٧).

(٢) الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن أبو سعيدٍ البصري، واسم أبيه يسار مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، رأى عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ، وكان - مع جلالته - يرسل كثيرا ويدلس، وما أرسله فليس بحجة. وكان رحمه الله جامعا، عالما، رفيعا، فقيها، ثقة، حجة، مأمونا، عابدا، ناسكا، كثير العلم، فصيحا. مات في شهر رجب سنة عشر ومائة، وهو ابن تسع وثمانين سنة. يُنظر: «الثقات» (٤/ ١٢٢- ١٢٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٦٣-٥٧٨)، و«تقريب التهذيب» (ص:٢٣٦).

(٣) «فتح القدير» (٤/ ٢٣٥).

(٤) «التحرير والتنوير» (مجلد ١١، ٢٧/ ٣٩٠).

(٥) رواه مسلم في الزكاة، باب لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثًا، رقم (١٠٥٠).

«قال الحسنُ البَصْريُّ: أُنزِلَ القرآنُ لِيُعمَلَ به، فاتَّخذُوا تلاوتَه عَمَلًا»(١).

وقد عرَّضَ سبحانه بالذين لم يتذكروا بالقرآن ولم يتدبروه، بوصفهم بضعف عقولهم؛ فقال سبحانه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

قال العلَّامة ابنُ عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيره»: «وفيه تعريضٌ بأنَّ الذين لم يتذكَّروا بالقرآنِ ليسوا مِن أهل العقول، وأنَّ التذكُّرَ مِن شأنِ المسلمين الذين يستمعونَ القولَ فيتبعون أحْسنَه، فهُمْ ممن تدبَّروا آياتِه فاستنبطوا مِن المعاني ما لم يَعلَموا، ومَن قرأه فتذكَّر به ما كان عَلِمَه وتذكَّر به حقًّا كان عليه أنْ يرعاه، والكافرون أعرضوا عن التدبر، فلا جَرَمَ، فاتَهم التذكُّرُ»(٢).

قال تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [طه:٩٩-١٠١]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤].

قال العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا أعظمُ العقوباتِ على العبدِ، أنْ يكونَ الذِّكرُ الذي أنزلَه اللهُ على رسولِه، الذي فيه حياةُ القلبِ والرُّوحِ وسعادةُ الدنيا والآخرةِ وفلاحُ الدَّارينِ، الذي هو أكبرُ مِنَّةٍ امتنَ اللهُ بها على عبادِه، تُوجِبُ عليهم المبادرةَ إلى قبولِها، والاستسلامَ لله بها، وشكرًا لله عليها، أنْ تكونَ لمثلِ هذا زيادةَ غيٍّ إلى غيِّه، وطغيانٍ إلى طغيانِه، وكُفْرٍ إلى كفْرِه، وذلك بسببِ إعراضِه عنها، وردِّه لها، ومعاندتِه إياها، ومعارضتِه لها بالشُّبهِ الباطلةِ»(٣).

*****

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٥-٥٣٧).
(٢) «التحرير والتنوير» (مجلد ٩، ٢٣/ ٢٥٣).
(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (١/ ٤٣٣).

الفصل الرابع

في أنّ تدبر القرآن أصل صلاح القلب

اعلم -رحمك الله- أنَّ تَدَبُّرَ القرآنِ أصلُ صَلاحِ القلبِ وفلاحِه وثباتِه، ولا شيء مثلُه في تثبيتِ قواعدِ الإيمانِ في القلب، وإرساءِ دعائمه؛ «لأنَّ اللهَ أمرَ بتدبرِ كتابه والتفكُّرِ في معانيه والاهتداءِ بآياته، وأثنَى على القائمين بذلك، وجعلهم في أعلى المراتبِ، ووعدهم أسْنَى المواهبِ، فلو أنفقَ العبدُ جواهرَ عُمُرِه في هذا الفنِّ، لم يكن ذلك كثيرًا في جنْب ما هو أفضلُ المطالِبِ، وأعظمُ المقاصِدِ، وأصلُ الأصولِ كلِّها، وقاعدةُ أساساتِ الدِّينِ، وصلاحِ أمور الدِّين والدُّنيا والآخرةِ، وكانت حياةُ العبدِ زاهرةً بالهُدَى والخيرِ والرحمةِ وطِيبِ الحياةِ والباقياتِ الصالحاتِ».[1]

فوا أسفا على قلةِ التَّدبرِ والتَّأملِ، والتَّفكرِ في كلامِ الله الذي أنزله شفاءً وهُدىً ورحمةً.

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ليس شيءٌ أنفعُ للعبد في معاشِه ومعادِه، وأقربُ إلى نجاته مِن تدبُّرِ القرآن، وإطالةِ التأملِ، وجمْعِ الفكر على معاني آياته، فإنها تُطْلِعُ العبدَ على معَالم الخيرِ والشَّرِ بحذافيرِهَا، وعلى طُرقَاتـهما، وأسبابِهما، وغاياتِهما، وثمراتِهما، ومآلِ أهلهما، وتَتُلُّ[2] في يده مفاتيحَ كنوز السَعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعدَ الإيمانِ في قلْبه، وتشيِّدُ بنيانَه، وتوطِّدُ أركانَه، وتريه صورةَ الدنيا والآخرةِ، والجنةِ والنارِ في قلْبه، وتُحْضِرُه بين الأمم، وتُريه أيامَ الله فيهم، وتُبصِّرُه مواقعَ العِبر، وتُشهدُه عدْلَ الله وفضْلَه، وتُعرِّفُه ذاتَه، وأسماءَه وصفاتِه

(١) «القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن» (ص: ١٣).
(٢) «تلَّ الشيءَ في يدِ فلان: وضعه فيها، أو دفعه إليه» «المعجم الوسيط»، (ص:٨٧).

وأفعالَه، وما يحبُّه وما يبغضُه، وصراطَه الموصِلَ إليه، ومَا لسَالكِيه بعد الوصولِ والقدومِ عليه، وقواطعَ الطريق وآفاتها، وتُعرِّفُه النفسَ وصفاتها، ومفسداتِ الأعمال ومُصحِّحاتها، وتُعرِّفُه طريقَ أهلِ الجنة وأهلِ النار، وأعمالَهم، وأحوالَهم، وسيماهم، ومراتبَ أهلِ السعادة، وأهلِ الشقاوة، وأقسامَ الخلق، واجتماعَهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقَهم فيما يفترقون فيه.

وفي تأمُّلِ القرآن وتدبُّره وتفهُّمِه أضعافُ أضعافُ ما ذكرناه مِن الحِكَم والفوائدِ، وبالجملة: فهو أعظم الكنوز، طِلَسْمُه[١] الغوصُ بالفكرِ إلى قرار معانيه».[٢]

فتَدبَّر القُرآنَ إنْ رُمْتَ الهُدَى ** فالعِلمُ تحتَ تَدبُّرِ القرْآنِ[٣]

«وبالجملة، فلا شيءَ أنفعُ للقلبِ مِن قراءةِ القرآنِ بالتّدبُّرِ والتّفكُرِ؛ فإنه جامعٌ لجميعِ منازلِ السائرينَ وأحوالِ العاملينَ ومقاماتِ العارفينَ، وهو الذي يُورِثُ المحبةَ والشوقَ والخوفَ والرجاءَ والإنابةَ والتوكلَ والرضا والتفويضَ والشكرَ والصبرَ وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُه، وكذلك يَزجُرُ عن جميعِ الصفاتِ والأفعالِ المذمومةِ التي بها فسادُ القلبِ وهلاكُه.

فلو عَلِم الناسُ ما في قراءةِ القرآن بالتدبُّرِ؛ لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِه كرَّرها ولو مئةَ مرةٍ، ولو ليلةً، فقراءةُ آيةٍ بتفكرٍ وتفهُّمٍ خيرٌ مِن قراءةِ ختمةٍ بغير تدبرٍ وتفهمٍ، وأنفعُ للقلبِ، وأدْعَى إلى حصولِ الإيمانِ وذَوْقِ حلاوةِ القرآنِ.

---

(١) أي: المزيلُ لغموضِه، الموضِّحُ لمعانيه، والمُفسِّرُ لمُبْهَمِه. يُنظر: «المعجم الوسيط» (ص: ٥٦٢).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ١١٦٠-١١٦٤) مختصرا.
(٣) «الكافية الشافية»، بيت رقم (٧٣٦)، (ص:٥٥).

وهذه كانت عادةُ السلف، يُرَدِّدُ أحدُهم الآيةَ إلى الصباحِ، وقد ثبتَ عن النبي ﷺ أنَّه قام بآيةٍ يُردِّدُها حتى الصباح، وهي قولُه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فقراءةُ القرآنِ بالتفكُّرِ هي أصلُ صَلاحِ القلبِ؛ ولهذا قال عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «لا تَهُذُّوا القُرآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ[١]، وقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ القُلُوبَ».[٢]

وروى أيوبُ عن أبي جَمْرةَ قال: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: إنِّي سَرِيعُ القراءةِ، إنِّي أقرأُ القُرآنَ في ثلاثٍ. قال: «لَأنْ أَقْرَأَ سُورةً مِن القُرآنِ فِي لَيْلَةٍ فَأَتَدَبَّرهَا وَأُرَتِّلَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْرَأَ القُرْآنَ كَمَا تَقْرَأُ»[٣].

والتفكُّرُ في القرآنِ نوعان: تَفكُّرٌ فيه ليقعَ على مُرادِ الرَّبِّ تعالى منه، وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَه إلى التفكر فيه.

فـالأولُ: تفكُّرٌ في الدليلِ القرآني.

والثاني: تفكُّرٌ في الدليل العِياني.

الأولُ: تفكُّرٌ في آياتِه المسموعةِ.

والثاني: تفكُّرٌ في آياتِه المشهودةِ»[٤]

*****

(١) «الدَّقَل: -مُحَرَّكة-: واحدُه: دَقَلَة، وهو رَدِيء التَّمر ويابِسُه، وما لَيْس له اسْم خاصٌّ، فَتراه لِيُبْسه ورَدَاءته، لا يجْتَمِع، ويكون مَنْثُورا»، ينظر: «النهاية في غريب الحديث»، (ص:٣٠٩).

(٢) رواه ابنُ أبي شيبة في «المصنف»(٣/ ٦١٠) رقم (٨٨١٧) ، وبنحوه البيهقي في «الشُّعب»، (٣/ ٤٠٦-٤٠٧) رقم (١٨٨٣، ١٨٨٤).

(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبرى»(٢/ ٥٥٥) رقم (٤٠٦٠)، وفي «الشُّعب»، (٣/ ٤٠٦) رقم (١٨٨٢).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٥-٥٣٧).

الفصل الخامس:

في كون الجميع مطالبين بتدبر القرآن الكريم

لقد سهَّلَ اللهُ تعالى ألفاظَ القرآنِ للحفظِ والتلاوة، حتى استظهره صغارُ الولدان، وسهَّل معانيه -أيضًا- للفهمِ والعلم، فهو أحسنُ الكلام لفظًا، وأصدقه معنىً، فمَن أقبل عليه يسَّرَ اللهُ عليه مطلوبَه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

قال العلَّامةُ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا كان عِلمُ القرآن حفظًا وتفسيرًا أسهلَ العلوم، وأجلَّها على الإطلاق، وهو العلمُ النافعُ الذي إذا طلبه العبدُ أُعِينَ عليه، قال بعضُ السَّلَف[١] عند هذه الآية: هل مِن طَالِب عِلمٍ فيُعَانُ عليه؟».[٢]

فالقرآنُ الكريمُ تَذْكِرةٌ لِعمومِ العَالَـمين؛ قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٥-٢٧].

قال الطاهرُ ابنُ عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ما القرآنُ إلا تذكيرٌ لجميع الناس ينتفعون به في صلاحِ اعتقادهم، وطاعةِ الله ربِّهم، وتهذيبِ أخلاقِهم، وآدابِ بعضِهم مع بعضٍ، والمحافظةِ على حقوقِهم، ودوامِ انتظام جمَاعَتِهم، وكيف يُعامِلون غيرَهم مِن الأُمم الذين لم يتَّبِعوه، فـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعمُّ كلَّ البشرِ؛ لأنهم مَدعوون للاهتداء به، ومستفيدون مما جاء فيه».[٣]

---

(١) هو مطر الوراق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انظر: صحيح البخاري في التوحيد، باب قول الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، رقم (٥٤).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٧٤٦).

(٣) «التحرير والتنوير» (مجلد١٢، ٣٠/ ١٦٥).

وهذا نرُدُّ به على مَن يريد الحيلولةَ بين المسلمين وبيْن فَهْمِ كلام ربِّهم - جلَّ وعلا-؛ فيصرفُ الناسَ عن تدبُّر القرآن؛ بدعوى أنَّ القرآن لا يفهمُه إلا العلماءُ الأفذاذُ الراسخون؛ نعم! القرآنُ فيه آياتٌ لا يعرفُها إلا العلماءُ الراسخون، كما قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفُه العربُ مِن كلامِها، وتفسيرٌ لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهَالَتِه، وتفسيرٌ يعْلَمُه العُلماءُ، وتفسيرٌ لا يعْلَمُه إلا اللهُ»[1]، فالقرآنُ في مُجْمَله مُيَسَّرٌ؛ كما أخبر الله -سبحانه وتعالى- عنه، ولعل غالبَ القرآن مِن النوعينِ الأوَّلين، والله أعلم.

وبناءً على هذا، فإن عَوَّامَ المسلمين مطالبون بتدبُّر القرآنِ الكريمِ؛ قال الإمامُ ابنُ هُبَيْرة[2] رحمه الله: «مِن مكايدِ الشيطانِ: تنفيرُه عبادَ الله مِن تَدبُّر القرآن لِعلْمِه أنَّ الهُدى واقعٌ عند التدبر، فيقولُ: هذه مخاطرةٌ، حتى يقولَ الإنسانُ: أنا لا أتكلَّمُ في القرآن تورُّعًا»[3].

فتبيّن بهذا أنَّ تدبُّر القرآن مُتاحٌ لكل قارئ؛ كل بحسبه، والحمد لله.

وكيف لا يُتدبرُ القرآنُ وقد أنزلَه اللهُ لهدايةِ البشرِ وسعادتِهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء:٩].

فالقرآنُ الكريمُ يَهْدي للتي هي أقومُ في جميع المجالات؛ في الاعتقادِ والعباداتِ، والسلوكِ والمعاملاتِ، والسياسةِ والاقتصادِ، والاجتماعِ، وغير ذلك.

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٧٠).

(٢) «ابن هبيرة: يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير للخلافة، قرأ القرآن وسمع الحديث، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وصنَّف كتبا جيدة مفيدة، من ذلك «الإفصاح» في مجلدات، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد، ولد سنة تسع وتسعين وأربع مائة، وتوفي شهيدا سنة ستين وخمس مئة»، ينظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٨/ ١٦٦-١٧٠)، و«البداية والنهاية» (١٦/ ٤١٥-٤١٧).

(٣) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٣).

وهو الكفيلُ بجميعِ المصالحِ، وحلِّ جميعِ المشاكل، قال سبحانه: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩].

وفي «صحيح مسلم» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ وقفَ في عرفات، فخطبَ النَّاس، فكان مما قال: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابُ اللهِ**»(١)، فأخذَ الموفَّقون مِن الصحابةِ الكرام ومَن سار على دربهم بهذه الوصية النبوية؛ فأضحوا مصاحِفَ تمشي على الأرض حين ترجموا القرآنَ الكريمَ ترجمةً عمليةً في واقِعهم وسائر أحوالِهم، كيف لا؟ وإمامُهم وقدوتُهم مَن كان خُلُقُه القرآن(٢)، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

فكان القرآنُ بمثابةِ الروح التي تسْري في أعماقِهم، ألا ترى إلى حَالِ أصحاب محمدٍ ﷺ بعد وفاته ولِحَاقِه بالرفيقِ الأعْلى وانقطاعِ خبَرِ السماء؛ فعن أنسِ بنِ مالك رضي الله عنه قال: «**قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِعُمَرَ رضي الله عنه: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ؛ فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ ﷺ، وَلَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى البُكَاءِ، فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ مَعَهَا**»(٣)، رواه مسلم.

وصدَق اللهُ إذ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

---

(١) رواه مسلم في الحج، باب حجة النبي ﷺ، رقم (١٢١٨).

(٢) كما وصفته الصدِّيقة بنت الصديق، عائشة رضي الله عنها، حين سُئلت عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟ فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ» رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، رقم (٧٤٦).

(٣) رواه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أم أيمن رضي الله عنها، رقم (٢٤٥٤).

فوالله الذي لا إلهَ غيرُه، لو عادت الأمةُ إلى هذا الكتابِ الكريمِ في هذا الزمنِ الذي عجزتْ فيه الأطروحاتُ والفلسفاتُ، والاجتماعاتُ والمؤتمراتُ عن حلِّ قضايا الأمة، لخرجتْ مما هي فيه سَالمةً مُعافَاةً، استمعْ إلى قول الله - جل وعلا-: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣]. وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾[النساء:٥٩].

وهكذا كانوا في صدْر هذه الأُمَّة، لا يُعوِّلُون في حلِّ مشكلاتِهم على غيرِ كتابِ الله، فيجدون الحلَّ الكافي والبلسمَ الشافي. ثم طالَ بالناسِ الأمدُ، وخَلَفَ خُلوف تشَاغَلُوا عن مصدر قُوَّتِهم وعِزَّتِهم، حتى آلَ الأمرُ إلى ما نحْنُ فيه اليوم، فواعجبًا، كيف تشقى أمةٌ كتابُها القرآن؟ والله إنَّ هذا لمن أعجب العجب؛ فربُّنا - جلَّ وعَلا- يقول: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه:١-٣].

ويقول أيضًا: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]، والجزاء من جنس العمل.

ومِنَ العَجائِبِ والعَجائِبُ جَمَّةٌ ** قُـرْبُ الشِّفَاءِ ومـا إليـهِ وصـولُ

كَالْعِيسِ[١] في الْبيْداءِ يَقْتُلُها الظما ** والمـاءُ فـوق ظُهُورِهـا محْمـولُ[٢]

---

(١)«العِيسُ: هي الإبلُ البِيضُ مع شُقْرةٍ يَسِيرة، واحِدُها : أعْيَسُ، وعَيْساءُ»، «النهاية في غريب الحديث» (ص: ٦٥٤)، و«لسان العرب» (٩/ ٤٨٦).

(٢) ينظر: «الآداب الشرعية» (٣/ ١٠٤).

فهو كتابٌ «أنزله اللهُ لنقرأه تدبُّرًا، ونسعد به تذكُّرًا. فهو نورُ البصائر مِن عماها، وشفاءُ الصدور مِن أدوائِها وجَوَاهَا[1]، وحادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف:٣١]، أسمعَ- والله- لو صادف آذانًا واعيةً، وبصّر لو صادف قلوبًا مِن الفسادِ خاليةً».[2]

ولهذا أمَرَ سبحانه بالاستِمسَاك بهذا الوحي المبين والذِّكر الحكيم؛ لأنَّ فيه سعادةَ الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٣-٤٤]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ فخرٌ لكم، ومنْقبةٌ جليلةٌ، ونعمةٌ لا يُقادَرُ قدرُها، ولا يُعرَفُ وصفُها، فهو أكبرُ مِنَّةٍ وأجلُّ مِنْحَةٍ، ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عن هذا القرآن، هل قُمْتم به فارتفعتُم وانتفعْتم؟ أمْ لم تقوموا به، فيكون حُجةً عليكم، كما قال ﷺ: «**وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ**»، رواه مسلم[3] عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

والقرآنُ الكريمُ هو القِسْطُ الذي تُعرَفُ به مقاماتُ الخلْقِ ودرجاتُهم، ففي «صحيح مسلم» عن نافع بن عبد الحارِث أنَّه لقِيَ عُمَرَ رضي الله عنه بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ، فَقَالَ: مَنِ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ فَقَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى؟! قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ اللهِ عز وجل، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[4].

(١) «الجَوَى: الحُرْقة وشدّة الوَجْدِ من عشق أو حُزْن»، «لسان العرب» (٢/ ٤٠٠).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٦٣- ١٦٥) مختصرا بتصرف يسير.

(٣) رواه مسلم في الطهارة، باب فضل الوضوء، رقم (٢٢٣).

(٤) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (٨١٧).

قال الإمامُ الزَّرْكَشِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنه ينبغي لَـمْحُ موقعِ النِّعمِ على مَن علَّمه اللهُ تعالى القرآنَ العظيم، أو بعضَه بكونِه أعظمَ المعجزات؛ لبقائه ببقاء دعوة الإسلام، ولكونِه ﷺ خاتمَ الأنبياء والمرسلين؛ فالحُجة بالقرآن العظيم قائمةٌ على كل عصر وزمان؛ لأنه كلامُ ربِّ العالمين، وأشْرفُ كتبِه جلَّ وعلا، فَليَرَ مَن عنده القرآن أنَّ اللهَ أنعم عليه نعمةً عظيمةً، وليستحضر مِن أفعاله أن يكونَ القرآنُ حُجةً له لا عليه؛ لأنّ القرآنَ مشتملٌ على طلَبِ أمورٍ، والكَفِّ عن أمورٍ، وذِكْرِ أخبارِ قَومٍ قامت عليهم الحجَّةُ؛ فصاروا عِبرةً للمعتبِرين حين زاغوا فأزاغَ اللهُ قلوبَهم، وأُهلِكوا لما عصَوا، وليحْذر مَن عَلِمَ حالَهم أنْ يعصيَ؛ فيصير مآلُهُ مآلَهم، فإذا استحضرَ صاحبُ القرآن عُلُوَّ شَأنِهِ بكونه طريقًا لكتاب الله تعالى، وصدرِه مصحفًا له؛ انكفَتَتْ[1] نفسُه عند التوفيق عن الرذائل، وأقبلَتْ على العملِ الصالحِ الهائلِ، وأكبرُ مُعينٍ على ذلك حسْنُ ترتيلِه وتلاوتِه».[2]

*****

(١) «انكفتت نفسُه: «يعني انقلبت وانصرفت»، ينظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للإمام القرطبي، (٥/ ٤٩٧).
(٢) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٦٣٤).

الفصل السادس:

في أنّ تدبر القرآن الكريم يقود إلي تعظيم الله الذي هو الغاية من الخلق

إنَّ تدبُّرَ القرآنِ الكريمِ هو أعظمُ ما يقودُ إلى تعظيمِ الله ﷻ؛ الذي هو الغايةُ مِن الخلْق، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢]، ولقد أمرَ ربُّنا - سبحانه وتعالى- بتعظيمِه وإجلالِه، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [المدثر:٣]، أي: عظِّمه بالتوحيدِ والعبادةِ.

وأصلُ عبادتِه سبحانَه معرفتُه بما وصفَ به نفسَه في كتابه، وبما وصفه به رسولُه ﷺ، قال سبحانه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [محمد:١٩][1].

وقد ذمَّ سبحانه مَن لا يَقْدُرُه[2] حقَّ قَدْرِه، ولا يُعظِّمُه حقَّ تعظِيمِه، فقال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، «واللهُ سبحانه قد ذكَرَ هذه الكلمةَ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧] في ثلاث[3] مواضع؛ ليُثبتَ عظمتَه في نفسِه، وما يستحقُّه مِن الصفات، ولِيُثبتَ وحدانيتَه وأنه لا يستحقُّ العبادةَ إلا هو وليُثبتَ ما أنزله على رسلِه، فقال في الزُّمَر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ

---

(١) وقد بوَّب الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه» على هذه الآية بقوله« باب العِلم قبلَ القوْلِ والعملِ؛ لقولِ الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعِلم»، وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في «الأصول الثلاثة»: «فبدأ بالعِلم قبْل القوْل والعمل».

(٢) «قَدَرَ فُلانًا: عظَّمَه، وفي التنزيل: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾[الأنعام:٩١] »، «المعجم الوسيط»، (ص:٧١٨).

(٣) هكذا في الأصل، وصوابه: «ثلاثة مواضع».

ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ الآية [الزمر:٦٧]، وقال في الحج: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج:٧٣-٧٤]، وقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

وفي المواضعِ الثلاثةِ ذمَّ الذينَ مَا قَدَرُوه حقَّ قدْرِه مِن الكفار، فدلَّ ذلك على أنه يَجِبُ على المؤمنِ أنْ يَقْدُرَ اللهَ حقَّ قَدْرِه، كما يَجب عليه أنْ يتَّقيَه حقَّ تُقاتِه وأنْ يُجاهدَ فيه حقَّ جِهَاده، قال تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨]، وقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢] ...

ودلَّت الآيةُ على أنَّ له قَدْرًا عظيمًا، لاسيما قوله: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر:٦٧] »[١].

وفي «الصحيحين» عن عبدِ الله بنِ مسعود رضي الله عنه قال: «جَاءَ حَبْرٌ[٢] إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فقال: يَا مُحَمَّدُ، أَوْ يَا أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ الله ﷺ تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ الحَبْرُ، تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧]»[٣].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٦٠-١٦١).

(٢) «حَبْر- بكسر الحاء وفتحها-: واحد الأَحبار، وهو الرَّجل الصالح، أو الرجل العالم، ومعناه: العالم بتحبير الكلام. وكان يقال لابن عباس رضي الله عنهما: الحَبْرُ والبَحْرُ؛ لِعلْمه» ، ينظر: «لسان العرب» (٣/ ١٢) مختصرا.

(٣) رواه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، رقم (٤٨١١)، ومسلم، واللفظ له، في أول صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٦).

وفي «الصحيحين» أيضًا عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ عز وجل السَّمَوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الـمَلِكُ، أَيْنَ الـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الـمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الـمَلِكُ، أَيْنَ الـجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الـمُتَكَبِّرُونَ؟»[(١)].

فتبيَّن بهذا أن أعظمَ ما يُشعرُ القلوبَ بعظمةِ الله وجلالِه، وخشيتِه وحُبِّه: «تدبرُ القرآنِ»، فهو مفتاحُ العلوم، وبه يزدادُ الإيمانُ وتصحُّ الفهوم، قال ربنا الحي القيوم: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢].

ومِن الدُّرر المأثورةِ عن الإمامِ الآجُرِّيِّ رحمه الله أنه قال: «ألا ترونَ - رحمكم الله- إلى مولاكم الكريم كيف يَحُثُّ خلْقَه على أن يتدبروا كلامَه، ومَن تدبَّرَ كلامَه عَرفَ الرَّبَّ عز وجل، وعَرفَ عظيمَ سلطانِه وقدرتِه، وعرفَ عظيمَ تفضُّلِه على المؤمنين، وعرفَ ما عليه مِن فرْضِ عبادتِه فألْزمَ نفسَهُ الواجبَ، فحَذِرَ مما حذَّرَه مولاه الكريمُ، ورغِبَ فيما رغَّبَه فيه، ومَن كانت هذه صفتُه عند تلاوتِه للقرآنِ، وعند استماعِه مِن غيرِه، كان القرآنُ له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعزَّ بلا عشيرةٍ، وأنِسَ بما يَستوحِشُ منه غيرُه، وكان همُّه عند التلاوةِ للسُّورةِ إذا افتتحَها: متى أتَّعِظُ بما أتلُو؟ ولم يكن مُرادُه: متى أختِمُ السورةَ؟ وإنما مُرادُه: متى أعقِلُ عن الله الخطابَ؟ متى أزدَجِرُ؟ متى أعتبِرُ؟؛ لأنَّ تلاوتَه للقرآنِ عبادةٌ، والعبادةُ لا تكون بغفلةٍ، والله الموفق»[(٢)].

*****

(١) رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، رقم (٧٤١٣)، ومسلم، واللفظ له، في أول صفة القيامة والجنة والنار، رقم (٢٧٨٨).

(٢) «أخلاق حملة القرآن» (ص: ٣٦-٣٧).

الفصل السابع:

في ذم الإعراض عن القرآن الكريم و شناعة ذلك

إذا كان هذا هو شأنَ الإقبالِ على القرآن تدبُّرًا وتفهُّمًا، فإنَّ الإعراضَ عن التدبر أمرٌ شنيعٌ وصدودٌ قبيح، قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله: «عابَ المنافقينَ بالإعراضِ عن التدبُّرِ في القرآنِ، والتفكُّرِ فيه وفي معانِيه»[1].

وقد ذمَّ اللهُ تعالى مَن لم يفهم عنه مُرادَه بالكلية، أو فهمَه فهمًا ضعيفًا؛ فقال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [النساء:٧٨].

وأخبر تعالى عن حال طائفةٍ من المنافقين في بلادتِهم وقِلةِ فهمهم، حيث كانوا يُجالسون رسولَ الله ﷺ، ويسمعون كلامَه فلا يفهمونَه، فإذا خرجوا مِن عنده، قالوا لأهلِ العلم مِن الصحابة: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؛ كما أخبر سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٦].

وقد ترجم شيخُ الإسلامِ محمدُ بنُ عبدِ الوهاب رحمه الله على هذه الآيةِ بقوله: «بابٌ: الخوفُ على من لم يفهم القرآن أن يكون من المنافقين»[2]، فهُم حالَ سماعهم القرآن لا يُصغون إلى النبيِّ ﷺ، ولا يُحضِرونَ قلوبَهم، وإنما يتشاغلون عن ذلك قصدًا، كما هو ديدنُ إخوانِهم من الكافرين، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فهؤلاء لا يَسمعون سماعًا ينفعهم؛ وإنما يسمعونَ بآذانهم ما تقومُ به الحُجةُ عليهم، أما قلوبُهم فالقرآنُ لا يَصِلُ إليها؛ عياذًا

---

(١) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٤٧٦).

(٢) «فضائل القرآن» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص:١٢).

بالله، فعاقبَهم اللهُ تعالى بالطبْعِ على قلوبِهم، جزاءً وفاقًا، قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء:٤٥]، قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «أغطيةً؛ لئلا يفقهوا القرآنَ»(١).

وقال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمعنى جعلْنا بيْن القرآنِ إذا قرأْتَه وبينهم حجابًا يَحول بينهم وبين فهْمِه وتدبُّرِه والإيمانِ به، ويبيِّنه قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء:٤٦]، وهذه الثلاثةُ هي الثلاثةُ المذكورةُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت:٥]، فأخبر سبحانه أنَّ ذلك بجَعْلِه، فالحجابُ يَمنعُ رؤيةَ الحقِّ، والأكنَّةُ تمنعُ مِن فَهْمِه، والوَقْرُ يَمنعُ مِن سَماعِه»(٢).

وقال سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]. قال سفيانُ بنُ عيينة(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنزِعُ عنهم فهْمَ القرآنِ، وأصرفُهم عن آياتي»(٤).

قال العلَّامةُ الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ذمَّ جلَّ وعَلا الـمُعْرِضَ عن هذا القرآنِ العظيمِ في آياتٍ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف:٥٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة:٢٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٤٧).

(٢) «شفاء العليل» (٢/ ٦٢٩-٦٣٠).

(٣) سفيان بن عيينة: «سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون أبو محمد الهلالي، الكوفي، ثم المكي، ثقةٌ حافظٌ فقيهٌ إمامٌ حُجة، ولد بالكوفة في شعبان سنة سبع ومائة، ومات في رجب سنة ثمان وتسعين ومئة وله إحدى وتسعون سنة، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ من الحفاظ المتقنين وأهل الورع والدين، وكان ربما دلس لكن عن الثقات». يُنظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٥٤- ٤٧٤)، و«الثقات» (٦/ ٤٠٣-٤٠٤)، و«تقريب التهذيب» (ص:٣٩٥).

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٥/ ١٥٦٧).

ومعلومٌ أنَّ كلَّ مَن لم يشتغل بتدبرِ آياتِ القرآنِ العظيم، أي تصفُّحِها وتفهُّمِها، وإدراكِ معانيها والعمل بها؛ فإنه مُعرِضٌ عنها، غيرُ متدبِّرٍ لها، فيستحقُّ الإنكارَ والتوبيخَ المذكورَ في الآياتِ، إن كان الله أعطاه فهمًا يقدِر به على التدبر، وقد شكا النبيُّ ﷺ إلى ربِّه مِن هجْرِ قومِه هذا القرآنَ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

وهذه الآيات المذكورة تدلُ على أنَّ تدبُّرَ القرآنِ وتفهُّمَه وتعلُّمَه والعملَ به، أمرٌ لا بدَّ منه للمسلمين. وقد بيَّن النبيُّ ﷺ أنَّ المشتغلينَ بذلك همْ خيرُ الناس، كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح مِن حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ[2] بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

فإعراضُ كثيرٍ مِن الأقطارِ عن النظرِ في كتابِ الله، وتفهُّمِه، والعملِ به، وبالسُّنةِ الثابتةِ المبينةِ له، مِن أعظمِ المناكرِ وأشنعِها، وإنْ ظنَّ فاعلوه أنهم على هدىً».[3]

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: «وحاجةُ الأُمةِ ماسَّةٌ إلى فهْم القرآن الذي هو حبلُ الله المتينُ والذِّكرُ الحكيمُ والصراطُ المستقيمُ، الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا تلتبسُ به الألسنُ، ولا يَخلَقُ عن كَثرةِ الترديد، ولا تنقضي عجائبُه، ولا يشبعُ منه العلماء، مَن قال به صدَق، ومَن عمِل به أُجِر، ومَن حكَم به عدَل، ومَن دعا إليه هُدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ، ومَن تركَه مِن جبار قصمَه الله، ومَن ابتغى الهدى في غيرِه أضلَّه الله»[4].

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٥٠٢٧).

(٢) قال الإمام البخاري في «صحيحه»: «وقال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ حُلماءَ فُقهاءَ، ويُقالُ: الرَّبَّانِيُّ الَّذِي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ العِلمِ قبْل كِبارِهِ»، في «العلم، باب العِلم قبلَ القوْلِ والعملِ».

(٣) «أضواء البيان» (٧/ ٤٥٧-٤٥٨).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣٠).

وقد أشار اللهُ تعالى إلى ما يؤول إليه التَّمادِي في هَجْرِ التَّدبرِ من قسوة القلب، وعدم الخشوع، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وقد ذكرَ اللهُ تعالى في القرآن الكريم أنَّ ضلالَ مَن ضلَّ مِن الناس مردُّه إلى تركِ تدبر القرآن، والإعراضِ عنه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ[1] ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون:٦٦-٦٨].

ولهذا كان تركُ تدبرِ القرآن نوعًا مِن هُجرانه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]، قال الحافظُ ابن كثير رحمه الله: «وتركُ تدبُّرِه وتفهُّمِه مِن هُجرانه، وتركُ العملِ به، وامتثالِ أوامره، واجتنابِ زواجره مِن هجرانه، والعدولُ عنه إلى غيره - مِن شِعْرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غيره- مِن هُجرانه[2]، فنسأل الله الكريمَ المنَّانَ القادرَ على ما يشاء، أن يخلِّصنا مما يُسْخطه، ويستعملَنا فيما يُرضيه، مِن حِفْظِ كتابِه وفهْمِه، والقيامِ بمقتضاه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ، على الوجهِ الذي يُحبُّه ويرضاه، إنه كريمٌ وهَّابٌ»[3].

وقد ضربَ اللهُ - تعالى- لليهودِ مثلًا في حالِهم مع التوراةِ يَحمِلُ على التنفيرِ مِن مُشابهتِهم، فقال سبحانه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

---

(١) «﴿سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾: تَسْمُرُونَ بِاللَّيْلِ تَخُوضُونَ فِي الْبَاطِلِ»، ذكره الإمام الطبري في «تفسيره» (١٧/ ٨٥) عن سعيد بن جبير رحمه الله.

(٢) قال الإمام ابن القيم رحمه الله في «الفوائد» (ص:١١٨): «هجر القرآن أنواع:-[وذكر منها]- والرابع: هجْرُ تدبُّره وتفهُّمه ومعرفةِ ما أراد المتكلم به منه».

(٣) «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٨ - ١٠٩).

قال أبو بكر الطُّرْطُوشِيُّ [(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «فدخلَ في عموم هذا مَن يَحفَظُ القرآنَ مِن أهل ملتنا، ثم لا يفهمُه، ولا يعملُ بما فيه».[(٢)]

ولْنقِفْ طويلًا عند قولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:٧٨]، فإنَّ هذا ذمٌّ لأهل الكتاب، وهو تحذيرٌ لمن بعْدهم.

قال الإمامُ القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره: «والأمانيُّ: جمع أُمْنِيَّة، وهي التِّلاوة، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢]، أي إذا تلا، ألْقى الشيطانُ في تلاوتِه.

وقال كعبُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ** وآخِرَه لَاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ».[(٣)]

فكَمْ هُم الذين يقرؤون القرآنَ الكريمَ اليومَ ولا يعونَ ولا يفهمونَ، بل يكتفون بمجردِ تلاوةِ اللسانِ، واللهُ المستعانُ.

فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ماذا حُرِمَ المعرضونَ عن القرآنِ مِن الهُدى والعِلم؟

فلقد ذمَّ اللهُ - جلَّ وعَلا- المعْرضينَ عن القرآنِ الكريمِ في غيرِ ما آيةٍ مِن كتابه؛ فقال سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن

(١) أبو بكر الطُّرطُوشِي: «الإمام القدوة محمد بن الوليد بن خلف الأندلسي، الطرطوشي نسبة إلى طُرْطُوشَة شمال الأندلس، له مؤلفات منها: سراج الملوك، و الحوادث والبدع، وغيرها، وُلِد سنة ٤٥١ هـ توفي سنة ٥٢٠ هـ»، «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٤٩٠-٤٩٦).

(٢) «الحوادث والبدع» (ص:١٠١).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢١٧-٢١٨) مختصرا.

والبيت - كما نسبه المؤلف- لكعب بن مالك رضي الله عنه، وهو كذلك في «النكت والعيون» (١/ ١٥٠)، و«المحرر الوجيز» (١/ ١٠٦) وغيرهما، ونُسِبَ لحسان بن ثابت، كما في «البحر المحيط» (٦/ ٣٥٣)، و«التحرير والتنوير» (مجلد ٧، ١٧/ ٢٩٩، و٣٠٦)، ووُجِد البيت بغير نسبة في«كتاب العين» (٨/ ٩٠)، و« لسان العرب » (١٣/ ١٩٦)، وغيرهما.

قَسۡوَرَةِۭ﴾[1] [المدثر:٤٩-٥١]، وقال سبحانه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الجاثية:٧-٨]، وقال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

وأخبر سبحانه أنَّ كلَّ مَن أعرضَ عن هذا القرآنِ فلابدَّ أن يلتبسَ عليه أمرُه، ويفسدَ عليه حالُه، قال سبحانه: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥] يعني: مختلطٍ عليهم ملتبسٍ.

وفي الإعراضِ عن القرآن اتباعٌ للهوى وإعراضٌ عن الهُدى؛ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:٥٠].

والإعراضُ عن كلامِ المولى - جلَّ وعَلا- عنوانُ الشقاء؛ قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ۝١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ۝١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، فكلُّ مَن أعرضَ عن القرآن، فلابدَّ أن يقولَ هذا يومَ القيامةِ، فلمَّا أعرضَ عن الذِّكرِ، وعميت عنه بصيرتُه، أعمى اللهُ بصرَه يومَ القيامة، والجزاء من جنس العمل؛ قال تعالى-: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا﴾ [الإسراء:٩٧].

فليس في الإعراضِ عن القرآنِ إلا الفسادُ والدمارُ، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ۝٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ۝٢٣ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٢-٢٤].

---

(١) قسورة: «الأسد بالعربية، ويقال له بالحبشية: قسورة»«تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٧٤).

قال الإمامُ ابن القيم رحمه الله: «وكأنَّ القلبَ بمنزلةِ المرتج[1] الذي قد ضُرِبَ عليه قُفْل، فإنه ما لم يُفتَحِ القُفْلُ لا يمكنُ فتحُ الباب والوصولُ إلى ما وراءه، وكذلك ما لم يُرفَعِ الخَتمُ والقُفْلُ عن القلبِ لم يَدخلْه الإيمانُ والقرآنُ».[2]

وفي إضافة الأقفال إلى ضميرها لطيفةٌ أشار إليها الإمام ابن القيم رحمه الله حيث قال: «وفي قوله: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتعريف نوع تأكيد، فإنه لو قال (أقفال)، لذهب الوهمُ إلى ما يُعرف بهذا الاسم، فلما أضافها إلى القلوب، عُلم أنَّ المراد بها ما هو للقلب بمنزلة القُفل للباب، فكأنه أراد أقفالها المختصة بها التي لا تكون لغيره، والله أعلم».[3]

وقال العلَّامةُ الطاهرُ ابنُ عاشور رحمه الله في تفسيرِه لهذه الآية: «وإضافة (أقفال) إلى ضمير (قلوب) نظمٌ بديعٌ أشار إلى اختصاصِ الأقفالِ بتلك القلوبِ، أي ملازمتها لها، فدلَّ على أنها قاسية».[4]

وتأمل كيف جاءت ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ مُنكَّرة، فلم يقلْ: (على قلوبهم)، قال الإمامُ القرطبيُّ رحمه الله في تفسيره: «لأنه لو قال: (على قلوبهم) لم يدخل قلبُ غيرهم في هذه الجملة، والمرادُ: أم على قلوبِ هؤلاء وقلوبِ مَن كانوا بهذه الصفة أقفالُها».[5]

---

(١) المرتج: «أَرْتَجَ البابَ: إذا أَغلقه إغلاقاً وثيقًا»، «لسان العرب» (٥/ ١٢٥)، وفي «مختار الصحاح» (ص:٩٨):«أَرْتَجَ الباب أغلقه، وأُرْتِجَ على القارئ إذا لم يقدر على القراءة كأنه أطبق عليه كما يرتج الباب».

(٢) «شفاء العليل» (٢/ ٦٣٨).

(٣) «المصدر السابق»(٢/ ٦٣٧-٦٣٨).

(٤) «التحرير والتنوير» (مجلد ١٠، ٢٦/ ١١٤).

(٥) «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٦٧).

وإذا كان اللهُ - جلَّ وعَلا- قد ذمَّ المنافقينَ والكافرينَ لِعدمِ تدبُّرِهم لكلامِه؛ فما الحال إذًا فيمَن قرأه ولم يتدبره من المسلمين وقد نزل بلسانهم؟

فالمقصودُ أنه لن ينتفعَ امرؤ بهذا القرآنِ، ولن يصلَ إلى الحكمةِ التي أرادها الله - تبارك تعالى- إلا إذا تدبَّره وأيقنَ أنه كلام الله -جلَّ وعَلا-، وتلاه حقَّ تلاوتِه، حينها ينتفعُ بالقرآن؛ وتظهر عليه آثارُهُ، وتُشرِقُ في قلبه أنوارُهُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة:١٢١].

* وقد كان نبيُّنا ﷺ في الذروةِ العُلْيا مِن التدبر لكلامِ الله - سبحانه وتعالى- فعن عبدِ الله بنِ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ تلاَ قوْلَ الله ﷻ في إبراهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ الآيَةَ [إبراهيم:٣٦]، وَقَالَ عِيسَى -عَلَيْهِ السَّلاَمُ-: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، فَرَفَعَ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**»، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ- وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟**» فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ -عَلَيْهِ السَّلاَمُ- فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلاَ نَسُوءُكَ**» رواه مسلم(١).

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: لَمَّا كَانَ لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي، قَالَ لي رسولُ الله ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ اللَّيْلَةَ لِرَبِّي**»، قُلتُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ قُرْبَكَ، وَأُحِبُّ مَا سَرَّكَ، قَالَتْ: فَقَامَ فَتَطَهَّرَ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَل يَبْكِي حَتَّى بَلَّ حِجْرَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَل يَبْكِي حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ، قَالَتْ: ثُمَّ بَكَى، فَلَمْ يَزَل يَبْكِي حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ، فَجَاءَ بِلاَلٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلاَةِ، فَلَمَّا رَآهُ يَبْكِي، قَالَ: يَا رَسُولَ الله، لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ وَمَا تَأَخَّرَ؟، قَالَ: «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا، لَقَدْ نَزَلَتْ**

---

(١) رواه مسلم في الإيمان، باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم، رقم (٢٠٢).

عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَةٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، **الآيَةَ كُلَّهَا»**، رواه ابن حبان[١]، وصحَّحه الألباني.

فيا أخي الموفَّق: لعلَّ هذه الآيات مِن أكثرِ ما سمعنا مِن أئمتنا في صَلواتنا؛ فأينَ التفكُّرُ والتدبُّرُ؟!

وفي «صحيح مسلم» عن مُطَرِّفٍ عن أَبيهِ قالَ: **أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ** ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، **قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي، وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»**[٢].

ولقد كان مِن هَدي الصحابةِ الكرام - رضوان الله عليهم- الدعوةُ إلى تدبُّرِ القرآنِ، حِكَمِه وأحْكامِه، وقَصَصِه وأخبارِه، ومواعظِه وأمثالِه، وتشريعاتِه وإعجازِه، فهذا عمرُ الفاروقُ رضي الله عنه يسألُ الصحابةَ رضي الله عنهم عن مَثَلٍ ضربَه اللهُ في القرآن لا يُدركُه إلا مَن نوَّرَ اللهُ بصيرتَه، وقرأَ القرآن وتدبَّرَه حقَّ تدبُّرِه كما هي حالُ أصحابِ محمدٍ ﷺ، ففي «صحيح الإمام البخاري» رحمه الله أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه قال يومًا لأصحاب النبي ﷺ: «فيم ترونَ هذه الآيةَ نزلَتْ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾؟ قالُوا: اللهُ أعْلَمُ. فغضِبَ عُمَرُ، فقالَ: قُولُوا: نَعْلَمُ، أوْ لا نَعْلَمُ. فقال ابنُ عبَّاس: في نفْسِي مِنها شيءٌ يَا أَمِيرَ المؤمِنين. قال عمرُ: يا ابنَ أخي قُل وَلا تَحْقِرْ نفْسَكَ. قال ابنُ عبَّاس: ضُرِبَت مَثَلاً لعَمَلٍ. قال عمرُ: أيُّ عمَلٍ؟ قال ابنُ عبَّاس: لِعَمَلٍ. قال عمرُ: لِرَجُلٍ غَني يَعْمَلُ بطَاعَةِ الله عز وجل، ثُمَّ بَعَثَ اللهُ له الشيطانَ، فعَمِلَ بالمَعَاصي حتى أغرَقَ أعمالَه»[٣].

---

(١) رواه ابن حبان (٢/ ٣٨٦-٣٨٧) رقم (٦٢٠)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٤٧) رقم(٦٨).

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق، رقم (٢٩٥٨).

(٣) حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رواه البخاري في التفسير، باب قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾، رقم (٤٥٣٨).

ولهذا «كان بعضُ السَّلفِ إذا مرَّ بمَثَلٍ لا يفْهمُه يبكي، ويقول: لستُ مِن العَالِـمِين؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]»[1].

قال العلَّامةُ ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**أمثال القرآن**: مِن أعظم علمه، وعَدَّه الشافعيُّ مما يجب على المجتهدِ معرفتُه، ضربها اللهُ تذكيرًا، ووعظًا، وهي تُصوِّر المعاني بصورةِ الأشخاصِ»[2].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الفَتَى مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا أُرِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي، فَقَالَ: مَا تَقُولُونَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:١-٢]، حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي، أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلتُ: لَا، قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟، قُلتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللهُ لَهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١] فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر:٣] قَالَ عُمَرُ: مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[3]، رواه البخاري.

وكان رسولُ الله ﷺ يدعو أصحابَه الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ إلى تدبُّرِ القرآن، فعن أُبيِّ بنِ كعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا الـمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**»، قَالَ: قُلتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**يَا أَبَا الـمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ**

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٣٨).

(٢) «حاشية مقدمة التفسير» لابن قاسم (ص:٩٧).

(٣) رواه البخاري في المغازي، باب، رقم (٤٢٩٤).

مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «وَاللهِ، لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا الـمُنْذِرِ» رواه مسلم[1].

فالسعيدُ كلُّ السعادةِ مَن وفَّقه اللهُ للإقبالِ على القرآنِ وتدبُّرِه والعملِ به، فإنَّ علومَ القرآن أفضلُ العلوم، وشرفُ أهلِه أمرٌ معلوم، ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩]، ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فإنه أعظمُ واعظٍ، وأكبرُ زاجرٍ، فما أنزلَ اللهُ واعظًا مثلَ هذا القرآن، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية:٦].

*****

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، رقم (٨١٠).

الفصل الثامن

في كيفية تدبر القرآن الكريم

وعن كيفية الوقوفِ عند معاني القرآن، يقول الإمامُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتدبُّرُ الكلامِ: أنْ ينظرَ في أولِه وآخرِه، ثمَّ يُعيدَ نظرَه مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ؛ ولهذا جاء على بناء التفعُّل كالتجرُّع والتفهُّم والتبيُّن، ويسمَّى استبصارًا؛ وهو استفعالٌ من التبصُّر، وهو تَبيُّنُ الأمر وانكشافُه وتجلِّيه للبصيرة، وكلٌّ مِن التذكرِ والتفكرِ له فائدةٌ غيرُ فائدةِ الآخرِ؛ فالتذكُّر يُفيدُ تَكرار القلبِ على ما علِمه وعرفه؛ ليرسَخ فيه ويثبت ولا ينمحي؛ فيذهبَ أثرُه مِن القلبِ جُملة، والتفكُّرُ يفيدُ تكثيرَ العِلم واستجلابَ ما ليس حاصلًا عند القلب، فالتفكُّر يُحصِّله، والتذكر يَحفظه، ولهذا قال الحسنُ: «ما زال أهلُ العلمِ يعودون بالتذكُّرِ على التفكُّرِ، وبالتفكُّرِ على التذكُّرِ، ويُناطِقونَ القلوبَ، حتى نَطَقَت بالحِكمة». فالتفكُّرُ والتذكُّرُ بِذارُ العلم، وسَقْيُه مُطارحتُه، ومُذاكرتُه تَلقيحُه، كما قال بعضُ السَّلفِ: «ملاقاةُ الرجالِ تلقيحٌ لألبابها»، انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وما ذكَره الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هو مقتضى كلام أهل اللغة؛ قال الإمام ابنُ منظورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَبَّرَ الأَمْرَ وتَدَبَّره: نظر في عاقبته، واسْتَدْبَرَه: رأى في عاقبته ما لم ير في صدره، وعَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّرًا: أَي بأَخَرَةٍ»[2].

وقال العلَّامةُ الفَيُّوميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَدَبَّرْتُ الأَمْرَ تَدْبِيرًا: فَعَلْتُهُ عَنْ فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ، وَتَدَبَّرْتُهُ تَدَبُّرًا: نَظَرْتُ فِي دُبُرِهِ، وَهُوَ عَاقِبَتُهُ وَآخِرُهُ»[3].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢٥-٥٢٦).

(٢) «لسان العرب»، (٤/ ٢٧٧).

(٣) «المصباح المنير»، (ص:٧٢).

يا أهل القرآن:

إن طريقَ التأثرِ بالقرآن الكريم هو التَّدبرُ لمعانيه، وإدراكُ مراميه، واستحضارُ عظمةِ المتكلِّم به، فيتأثرُ القلبُ بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآياتِ، فيكون له بحسب كلِّ فهمٍ حالٌ مِن الحزنِ والخوفِ والرجاءِ وغيره.

«فعند الوعيدِ وتقييدِ المغفرة بالشروطِ يتضاءل من خيفته؛ كأنه يكاد يموت، وعند التوسعِ ووعدِ المغفرة يستبشرُ كأنه يطيرُ مِن الفرحِ، وعند ذِكرِ الله وصفاتِه يتطأطأُ خضوعًا لجلالِه واستشعارًا لعظمتِه... وعند وصفِ الجنةِ ينبعثُ بِباطنِه شوقًا لها، وعند ذِكرِ النَّارِ ترتعدُ فرائصُه[١] خوفًا منها».[٢]

قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله ما أصبحَ اليومَ عبدٌ يتلو القرآنَ يؤمنُ به، إلا كثُرَ حزنُه، وقلَّ فرحُه، وكثُرَ بكاؤُه، وقلَّ ضحكُه، وكثُرَ نصَبُه وشغلُه، وقلَّت راحتُه وبطالتُه»[٣].

وقال الإمامُ السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدثًا عن كيفية الوقوفِ عند معاني القرآن: «أن يشغلَ قلبَه بالتفكُّر في معنى ما يَلفِظُ به، فيعرفَ معنى كلِّ آيةٍ، ويتأملَ الأوامرَ والنواهي، ويعتقدَ قبولَ ذلك! فإنْ كان مما قَصَّرَ عنه فيما مضى اعتذرَ واستغفرَ، وإذا مرَّ بآيةِ رحمةٍ استبشرَ وسألَ، أو عذابٍ أشفقَ وتعوَّذَ، أو تنزيهٍ نزَّهَ وعظَّمَ، أو دعاءٍ تضرَّعَ وطلَبَ»[٤].

---

(١) «الفَرِيصةُ: لحمة عند نُغْضِ الكتف في وسط الجنب عند مَنْبِض القَلْب، وهما: فَرِيصَتان تَرْتَعِدان عند الفزع . وقيل هي: المُضْغَةُ القليلة تكون في الجَنْب تُرْعَد مِن الدابة إذا فَزِعَت. وقيل هي: اللحمة التي بين الجَنْب والكتف التي لا تزال تُرْعَد من الدابة. وقيل هي: اللحمُ الذي بين الكتف والصدر، ومنه الحديث: فجيءَ بهما تُرْعَدُ فرائِصُهما، أي تَرْجُفُ. والفَرِيصةُ: المُضْغَةُ التي بين الثدي ومَرْجع الكتف من الرجل والدابة، وقيل: الفَرِيصة: أَصلُ مرجع المرفقين ... جمعها: **فَرِيصٌ وفَرائِصُ**»، ينظر: «لسان العرب» (١٠/ ٢١٨).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٢٨٧).

(٣) «المصدر السابق» (١/ ٢٨٦-٢٨٧).

(٤) «الإتقان في علوم القرآن» (٢/ ٦٧٨).

وقال الإمامُ الزركشيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وينبغي أن يشتغلَ قلبُه في التفكيرِ في معنى ما يلفظ بلسانِه، فيعرف من كل آيةٍ معناها، ولا يجاوزها إلى غيرها حتى يعرف معناها، فإذا مرَّ به آيةُ رحمةٍ وقف عندها، وفرح بما وعده الله -تعالى- منها، واستبشرَ إلى ذلك، وسأل الله برحمته الجنةَ، وإن قرأ آيةَ عذابٍ وقف عندها، وتأمل معناها، فإن كانت في الكافرين اعترف بالإيمان، فقال: آمنا بالله وحده، وعرف موضع التخويف، ثمَّ سأل الله -تعالى- أن يُعيذه مِن النار، وإن هو مرَّ بآية فيها نداءٌ للذين آمنوا، فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾، وقف عندها، وقد كان بعضهم يقولُ: لبيك ربي وسعديك، ويتأمل ما بعدها مما أُمِرَ به ونُهِيَ عنه، فيعتقد قبولَ ذلك، فإن كان من الأمر الذي قد قصَّر عنه فيما مضى اعتذر عن فعله في ذلك الوقت، واستغفر ربَّه في تقصيره، وذلك مِثل قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، وعلى كلِّ أحد أن ينظرَ في أمر أهلِه في صلاتِهم وصيامِهم وأداءِ ما يلزمهم في طهارتهم وجناباتهم، وحيض النساء ونفَاسهن، وعلى كل أحد أن يتفقد ذلك في أهله، ويراعيهم بمسألتهم عن ذلك، فمن كان منهم يحسنُ ذلك كانت مسألته تذكيرًا له، وتأكيدًا لما في قلبه، وإن كان لا يُحسن كان ذلك تعليمًا له، ثمَّ هكذا يراعي صغارَ ولدِه، ويُعلمهم إذا بلغوا سبعًا أو ثماني سنين، ويضربهم إذا بلغوا العشر على ترْك ذلك، فمن كان مِن الناس قد قصَّر فيما مضى اعتقد قبولَه والأخذَ به فيما يستقبل، وإن كان يفعل وقد عرفه، فإنه إذا مر به تأمله وتفهمه، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، فإذا قرأَ هذه الآيةَ تذكَّر أفعالَه في نفسِهِ وذنوبَه فيما بينه وبين غيره من الظُّلامات[1] والغيبة

---

(١) الظُّلامات: واحدتُها: الظُلامة، وهي: «ما تُظْلَمُهُ، وهي المَظْلِمَةُ. والظُلامة: اسْمُ مَظْلِمتِك التي تَطْلُبها عند الظَّالم، يُقال: أَخذَها منه ظُلامةً.. والمَظْلِمةُ: ما تَطْلُبه عند الظّالم، وهو اسْمُ ما أُخِذَ منك» ا.هـ «لسان العرب» (٨/ ٢٥٢).

وغيرها، وردَّ ظُلامته، واستغفر مِن كلِّ ذنب قصَّر في عملِه، ونوى أن يقوم بذلك، ويستحلَّ كلَّ مَن بينه وبينه شيء مِن هذه الظُّلامات؛ مَن كان منهم حاضرًا، وأن يكتب إلى مَن كان غائبًا، وأن يرد ما كان يأخذه على مَن أخذه منه، فيعتقد هذا في وقتِ قراءةِ القرآن؛ حتى يعلمَ اللهُ -تعالى- منه أنه قد سمعَ وأطاع، فإذا فعل الإنسانُ هذا، كان قد قام بكمال ترتيل القرآن»(١).

بهذا التدبر تفيضُ العينُ مِن الدَّمعِ، ويوجَلُ القلبُ، ويقشعرُّ الجلدُ، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣].

قال قتادةُ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا نعتُ أولياءِ الله، نعتَهم اللهُ بأنْ تقشَعرَّ جلودُهم، وتبكيَ أعينُهم، وتطمئنَّ قلوبُهم إلى ذِكر الله، ولم ينعتْهُم بذهابِ عقولِهم والغشيانِ عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا مِن الشيطان»(٢).

ودونك - أيها المبارك- شاهدًا واحدًا لتقفَ على حقيقةِ التدبرِ التي كان النبي ﷺ يتمثلُها ويتخلَّقُ بها، فعن حذيفةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ، فَقُلتُ: يَرْكَعُ عِنْدَ المِئَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا- يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا- إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ،...» الحديثَ، رواه مسلم(٣).

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٦٣٥-٦٣٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٩٥).

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل، رقم (٧٧٢).

وكلَّما ازدادَ الإنسانُ تأملًا في القرآن وتدبرًا، ازدادَ علمًا وعملًا وتَبصُّرًا وتذكُّرًا، وهذا هو مقصودُ القرآن، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وكان إمامُ أهل السنة والجماعة أحمدُ بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ قد تعرَّض لأذىً عظيم؛ فسُجِن وضُرِب، ثمَّ نراه يعفو عن جميع مَن ظلمه حين تَدَبُّرِهِ لآيةٍ من كتاب الله؛ فهذا ابنه صالح يحكي عنه أنه حين «خُلِّيَ عَنْهُ، فَصَارَ إِلَى المَنْزِلِ، وَوُجِّهَ إِلَى الـمُطْبِقِ[1]، فَجِيْءَ برجلٍ مِمَّنْ يُبصرُ الضَّربَ وَالعلاجَ، فَنظَر إِلَى ضربه، فَقَالَ: قَدْ رَأَيْتُ مَنْ ضُربَ أَلفَ سوطٍ، مَا رأيتُ ضربًا مِثْلَ هَذَا، لَقَدْ جُرَّ عَلَيْهِ مِنْ خلفه، وَمِن قُدَّامه، ثُمَّ أَخذَ مِيلًا، فَأدخلَه فِي بَعْضِ تِلكَ الجرَاحَاتِ، فَنظَر إِلَيْهِ، فقَالَ: لَمْ يُنْقَبْ؟ وَجعَلَ يَأتيه، وَيعَالجُه. وَكَانَ قد أَصَابَ وَجْهه غَيْرُ ضَربَة، وَمكثَ مُنكبًّا عَلَى وَجْهه كم شَاءَ اللهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: إِنَّ هَهُنَا شَيْئًا أُرِيْدُ أَن أقطعه، فَجَاءَ بِحَدِيدَةٍ، فَجَعَلَ يُعلِّقُ اللَّحْمَ بِهَا، فَيقطَعُهُ بِسِكِّينٍ مَعَهُ، وَهُوَ صَابرٌ لِذَلِكَ، يَجهرُ بحمدِ الله فِي ذَلِكَ، فَبَرَأَ مِنْهُ، وَلَمْ يَزَل يتَوَجَّعُ مِنْ مَوَاضِعَ مِنْهُ، وَكَانَ أثرُ الضَّربِ بَيِّنًا فِي ظَهْرِه إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ.

وَدخلتُ يَوْمًا، فَقُلتُ لَهُ: بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَيْكَ، فَقَالَ: اجعلنِي فِي حِلٍّ؛ إِذْ لَمْ أَقُمْ بِنُصرتِك، فَقُلتَ: لَا أَجعلُ أحدًا فِي حِلٍّ، فتبَسَّمَ أَبِي وَسكتَ، وَسَمِعْتُ أَبِي يَقُوْلُ: لَقَدْ جَعَلتُ المَيِّتَ فِي حِلٍّ مِنْ ضَربه إِيَّايَ.

ثم قال: مررْتُ بِهذِه الآيةِ: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشُّورَى:٤٠]، فنظرتُ فِي تفسِيرهَا، فإذا هو ما أخبرنا هاشمُ بنُ القاسِم، أخبرنا الـمباركُ بنُ فَضالَة، قال:أخبرنِي مَن سمِعَ الحسنَ يقولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ، جَثتِ الأُمَمُ

---

(١) «الـمُطْبِقُ»: السِّجن تحت الأرض، «المعجم الوسيط» (ص: ٥٥١).

كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، ثُمَّ نُودِيَ أَنْ لَا يقومَ إِلَّا مَنْ أَجرُه عَلَى اللهِ، فَلاَ يَقومُ إِلَّا مَنْ عَفَا فِي الدُّنْيَا، قَالَ: فَجَعَلتُ الـمَيِّتَ فِي حِلٍّ، ثُمَّ قَالَ: وَمَا عَلَى رَجُلٍ أَنْ لَا يُعَذِّبَ اللهُ بِسَبَبِهِ أَحَدًا»[1].

ومتى تدبَّرَ المؤمنُ القرآنَ حقَّ تدبره، أورثَه ذلك **تنزيلَ الآياتِ القرآنيةِ على الحوادثِ النَّازلةِ والوقائعِ الـمُستجدَّةِ**، وهذا ما سنتناولُه في الفصلِ الذي يلي هذا.

*****

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٥٦-٢٥٧).

الفصل التاسع:

تنزيلُ الآياتِ القرآنيةِ على الحوادثِ النازلةِ والوقائعِ المستجدة

إنَّ تدبُّرَ القرآنِ الكريمِ يُورثُ المؤمنَ مَلَكَةً يتمكَّنُ بها مِن تنزيلِ الآياتِ على الأحوالِ الواقِعَةِ، فإنَّه ما مِن نازِلةٍ تَحِلُّ بالمسلمين إلا وفي كتاب الله تعالى ما يدلُّ على حلِّها، إما نصًا أو دلالةً أو قياسًا.

قال سبحانه عن كتابه الكريم: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت:٤٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء:٩-١٠].

ولله درُّ الإمام الشافعي رحمه الله حيث قال: «فليستْ تنزِلُ بِأَحدٍ مِن أَهْلِ دِين الله نازلةٌ إلا وفي كتابِ الله الدليلُ على سَبيلِ الهُدَى فِيهَا»[1].

وقال الإمامُ الشاطبيُّ رحمه الله: «إنَّ الشريعةَ لم تَنُصَّ على حُكْمِ كلِّ جزئيةٍ على حِدَتها، وإنما أتتْ بأمورٍ كُلِّيةٍ وعباراتٍ مُطلَقةٍ تتناولُ أعدادًا لا تنْحصِر»[2].

وقال الشيخُ عبدُ الرحمن السعديُّ رحمه الله: «على النَّاس أنْ يتلقوا معنى كلامِ الله كما تلقَّاه الصحابةُ رضي الله عنهم، فإنَّهم كانوا إذا قرأوا عشْرَ آيات - أو أقلَّ أو أكثرَ- لم يتجاوزوها حتى يَعرفوا ما دلَّت عليه مِن الإيمانِ والعلمِ والعملِ، فينزلونها على الأحوال الواقعة، فيعتقدون ما احتوت عليه مِن الأخبار، وينقادونَ لأوامِرها ونواهِيها، ويُدخِلُون فيها جميعَ ما يشهدون مِن الحوادثِ والوقائعِ الموجودةِ بهم

(١) «الرسالة» (ص:٢٠).
(٢) «الموافقات»، (٥/ ١٤).

وبغيرِهم، ويحاسبونَ أنفسَهم: هل هُمْ قائمون بها أو مُخِلُّون؟ وكيف الطريقُ إلى الثباتِ على الأمور النافعة، وإيجادِ ما نقصَ منها؟ وكيف التخلصُ مِن الأمورِ الضارةِ؟ فيهتدون بعلومِه، ويتخلَّقون بأخلاقه وآدابِه، ويعلمونَ أنه خطابٌ مِن عَالِمِ الغيبِ والشهادة مُوَجَّهٌ إليهم، ومُطالبونَ بمعرفةِ معانيه، والعملِ بما يقتضيه.

فمَن سلَكَ هذا الطريق الذي سلكوه، وجَدَّ واجتهدَ في تدبُّرِ كلامِ الله، انفتحَ له البابُ الأعظمُ في عِلم التفسير، وقويت معرفتُه، واستنارت بصيرتُه، واستغنى بهذه الطريقةِ عن كثرةِ التَّكلُّفَاتِ، وعن البحوثِ الخارجية، وخصوصًا إذا كان قد أخذ مِن علوم العربية جانبًا قويًا، وكان له إلمامٌ واهتمامٌ بسيرة النبي ﷺ وأحوالِه مع أوليائِه وأعدائِه؛ فإنَّ ذلك أكبر عونٍ على هذا المطلَبِ»[1].

ولهذا قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله وهو يتحدثُ عن القرآن: «ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشعرُ بدخولِ الواقعِ تحتَه، وتضمُّنِه له، ويظنُّ[2] في نوعٍ وقوم قد خَلَوا مِن قَبل ولم يُعقِّبُوا وارثًا، وهذا هو الذي يحولُ بين القلبِ وبينَ فهمِ القرآنِ»[3].

وكانت قضية تنزيل الآيات على الواقع متداولَةً في عصر النبي ﷺ، فمِن ذلك ما رواه الشيخان عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ، فَقَالَ: «أَلَا تُصَلُّونَ؟». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ الله، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا. فَانْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ قُلْتُ لَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: «﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]»[4].

---

(١) «القواعد الحسان» (ص: ١٥-١٦).

(٢) كذا بالمطبوع، ولعله: «ويظنُّه»، والله أعلم.

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٢٢).

(٤) رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسُّنة، باب قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، رقم (٧٣٤٧)، ورواه مسلم - واللفظ له - في صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام الليل أجمع، رقم (٧٧٥).

وعن بُريدةَ ﷺ قال: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ، فَأَقْبَلَ الحَسَنُ وَالحُسَيْنُ ﷺ، عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ، يَعْثُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَنَزَلَ فَأَخَذَهُمَا، فَصَعِدَ بِهِمَا المِنْبَرَ، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ اللهُ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥]، رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ»، ثُمَّ أَخَذَ فِي الخُطْبَةِ.(١)

فهذان شاهدان على تنزيلِ النبيِّ ﷺ القرآن على الحوادثِ والوقائعِ المستجدة.

وقد سار الصحابةُ الكرامُ – رضوان الله عليهم – على هذا المنهجِ النبويِّ في تعاملِهم مع الحوادثِ النَّازلةِ، فها هو صِدِّيقُ الأمةِ أبو بكر الصدِّيق ﷺ حين تُوفي النبيُّ ﷺ، ورأى ﷺ توقُّفَ البعضِ في هذا الأمر الجلل، صعد المنبرَ وخطبَ خُطبتَه الشهيرةَ البليغةَ: حمِدَ اللهَ وأثنى عليهِ، وقال: «أَلاَ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ. وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]»؛ فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ.(٢)

فكان هذا التنزيلُ كالغيثِ الهتَّان النازِلِ على الظمآن، فخفَّفَ المُصابَ، وحسَمَ الجدلَ، حتى كأنهم لم يسمعوا بتلك الآياتِ مِن قبْلِ أنْ يتلوها الصدِّيقُ – رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) رواه أبو داود في الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، رقم (١١٠٩)، ورواه الترمذي في المناقب، باب مناقب الحسن و الحسين ﷺ، رقم (٣٧٧٤)، وصححه الألباني.

(٢) حديث عائشة ﷺ: رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب، رقم (٣٦٦٨).

ولا يزالُ علماءُ الأُمةِ يسيرون على هذا الطريق، فمِن التنزيلِ الصحيح للآياتِ ما ذكرَه الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله في تفسير قولِه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، قال: «نزِّلْ هذه الآيةَ على أحوالِ العالم، وطابِق بين الواقعِ وبينَها، وأنت ترَى كيف تَحدُثُ الآفاتُ والعِلَلُ كلَّ وقتٍ في الثمارِ والزرْعِ والحيوانِ، وكيف يَحدُثُ مِن تلك الآفاتِ آفاتٌ أُخَرُ متلازمةٌ، بعضُها آخِذٌ برقَابِ بعضٍ، وكلما أحْدثَ الناسُ ظُلْمًا وفُجورًا، أحدَث لهم ربُّهم - تبارك وتعالى - مِن الآفاتِ والعِللِ في أغذيتِهم وفواكِههم، وأهويتِهم ومياهِهم، وأبدانهم وخَلْقهم[1]، وصُورِهِم وأشكالِهم وأخلاقِهم مِن النقصِ والآفاتِ ما هو مُوجَبُ أعمالِهم وظلمِهم وفجورِهم.

ولقد كانت الحبوبُ مِن الحنْطةِ وغيرِها أكبرَ مما هي اليوم، كما كانت البركةُ فيها أعظم. وقد رَوى الإمامُ أحمدُ بإسنادِه أنه وُجِدَ في خزائنِ بعضِ بني أمية صُرَّةٌ فيها حِنطةٌ أمثال نَوى التَّمرِ مكتوبٌ عليها: هذا كان يَنبُتُ أيامَ العدلِ.

وأكثرُ هذه الأمراضِ والآفاتِ العامةِ بقيةُ عذابٍ عُذِّبَتْ به الأُممُ السَّالِفةُ، ثم بَقِيتْ منها بقيةٌ مُرْصَدَةٌ لمَن بقيَتْ عليه بقيةٌ مِن أعمالِهم، حُكْمًا قسطًا، وقضاءً عدلاً، وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: إنَّه «بقيةُ رجزٍ أو عذابٍ أُرسِلَ على بني إسرائيلَ»[2].

وكذلك سلَّط اللهُ - سبحانه وتعالى - الريحَ على قوم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام، ثم أبقَى في العالَم منها بقيةً في تلك الأيام، وفي نظيرِها عِظةٌ وعِبرة.

---

(١) روى الإمام البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٤١)، حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ».

(٢) حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه: رواه مسلم في السلام، باب الطاعون والطيرة، رقم (٢٢١٨)، ولفظُه: «الطَّاعُونُ رِجْزٌ أَوْ عَذَابٌ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، وروى البخاري - نحوه - في الحيل، باب ما يُكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون، رقم (٦٩٧٤).

وقد جعل اللهُ سبحانه أعمال البَرِّ والفاجر مقتضياتٍ لآثارِها في هذا العالَمِ اقتضاءً لا بُدَّ منه، فجعل منعَ الإحسانِ والزكاةِ والصدقةِ سبباً لمنْعِ الغَيْثِ مِن السماءِ، والقحْطِ والجَدْبِ، وجعَلَ ظُلمَ المساكينِ، والبخْسَ في المكاييلِ والموازينِ، وتعدِّي القَويِّ على الضعيف؛ سببًا لجَوْرِ الملوك والوُلاة الذين لا يَرحمونَ إن اسْتُرْحِموا، ولا يَعْطِفُون إن استُعطِفُوا، وهم في الحقيقة أعمالُ الرعايا ظَهرتْ في صُوَرِ وُلاتِهم، فإنَّ اللهَ - سبحانه - بحكمتِه وعدلِه يُظهِرُ للناس أعمالَهم في قَوالِب وصورٍ تناسبها، فتارةً بقحْطٍ وجدْبٍ، وتارة بعدوٍّ، وتارةً بولاةٍ جائِرين، وتارةً بأمراضٍ عامة، وتارةً بهُمومٍ وآلامٍ وغمومٍ تحضُرها نفوسُهم لا ينفكُّونَ عنها، وتارةً بمنع بركاتِ السَّماءِ والأرضِ عنهم، وتارةً بتسليطِ الشياطينِ عليهم تَؤُزُّهم إلى أسبابِ العذاب أزًّا، لِتَحِقَّ عليهم الكلمةُ، وليصيرَ كل منهم إلى ما خُلِقَ له. والعاقلُ يُسَيِّرُ بصيرتَه بين أقطارِ العالَمِ، فيُشاهدُه، وينظرُ مواقعَ عدْلِ الله وحكمتِه، وحينئذٍ يَتَبيَّنُ له أنَّ الرُّسُلَ وأتباعَهُم خاصةً على سبيلِ النجاةِ، وسائرَ الخلْقِ على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البَوار صائِرون، واللهُ بالغُ أمرِه، لا مُعقِّبَ لحكمه، ولا رادَّ لأمْرِه، وبالله التوفيق» انتهى كلامُه رحمه الله، وأنزلَ على قبره شآبيبَ الرحمة[١].

وليُتنبَّه إلى أنَّ هذا المقام[٢] مَزِلَّةُ أقدام ومَضِلةُ أفهام إذا استعمله مَن ليس مِن أهلِه، ممَّن غلبَ عليه الهوى أو الجهل، فلابدَّ مِن سلامةِ القصْدِ والتجرُّدِ مِن الهوى السياسي أوالمذهبي، وغير ذلك. ومِن أمثلةِ ذلك:

* ما فعلَه الزمخشري في تفسيره: «**الكشَّاف**»، على سَعة علْمِه وحِدَّة ذِهنه، مِن تنزيلِ آيةٍ في اليهود والنصارى على أهل السُّنة والجماعة؛ وذلك بسبب تعصبه الاعتزالي ضد أهل السُّنة في زمانه، فيقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ

---

(١) «زاد المعاد»، (٤/ ٣٣٢-٣٣٤).

(٢) أي: «تنزيلُ الآياتِ القرآنيةِ على الحوادثِ النَّازلةِ والوقائعِ الـمُستجدَّةِ».

تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥]: «﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾: وهم اليهود والنصارى، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾: الموجِبَةُ للاتفاق على كلمةٍ واحدةٍ وهي كلمة الحق. وقيل: هم مبتدعو هذه الأمة، وهم المشبِّهةُ والمجبرةُ والحَشَويةُ وأشباهُهم»[١]، والمصيبةُ أنَّه جعلَ أهل السُّنة ضمن المبتدعة الذين تفرَّقوا.

* ومن ذلك ما يفعله الخوارجُ مِن التخبُّطِ والتخليطِ في تنزيل الآيات في غير موضعها، جهلا منهم وسوء فهْم، ولذلك كان ابن عمر ﵄ يراهم شرَّ الخلْق، ويقول: «إِنَّهُمُ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ، فَجَعَلُوهَا عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ».[٢]

* ومِن الهذيان في هذا الشأن ما ذَكرَه بعضُهم في تنزيلِ قوْل الله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير:٥]، على حدائقِ الحيوان الموجودةِ في الدنيا، وجعلَ ذلك مِن أشراطِ الساعة، فقال: «فقد حُشِرت الوحوشُ وجُمِعَت في البساتين المعدَّة لذلك، كما قال اللهُ تعالى»!

ثم استطرد بعد ذلك بذِكْرِ لازمِ ذلك وما يترتبُ على هذا المفهوم، فقال: «وهو فِعلٌ مُحرَّمٌ منهيٌّ عنه شرعًا، مِن وجوهٍ: أحدُها: تعذيبُ تلك الحيوانات بسجْنها في الأقفاص، ومنْعها مِن حريتها» إلى أن قال: «ويكفي أنَّ اللهَ تعالى جعلَ ذلك مِن أشراطِ الساعة، وأنها قائمةٌ عند وجودِه»[٣].

* و«حيث أطلَّ الرفضُ على كلِّ بلدٍ مِن بلادِ الإسلامِ، وغيَّرها بكلِّ قوته

---

(١) «الكشاف»، (١/ ٦٠٦-٦٠٧).

(٢) رواه البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم.

(٣) القائل: هو الشيخ أحمد بن محمد الغماري – عفا الله عنه–، ينظر كتابه: «مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية»، (ص:٢٣).

في الدعوةِ إلى مذْهَبِه، وثَلْب خيرِ القرونِ وأفضلِها، وألقى حبائلَه أمامَ مَنْ لا يَعرِفُ حقيقتَه، مُظْهِرًا غيرَ ما يُبطنُ دَيْدنَ كلِّ مُنافِقٍ مُفسدٍ ختَّالٍ، فاغترَّ به مَنْ يجهلُ حقيقتَه»[1].

«وهُمْ مِن أكْذَبِ النَّاسَ في النَّقْليات، ومِنْ أجهلِ الناسِ في العقلياتِ، يُصدِّقون مِن المنقولِ بما يَعلمُ العلماءُ بالاضطرارِ أنَّه مِن الأباطيلِ، ويُكَذِّبونَ بالمعلومِ مِن الاضطرارِ المتواترِ أعظم تواتر في الأمة جيلا بعد جيل، ولا يميزون في نَقَلَةِ العلم ورواةِ الأخبارِ بين المعروفِ بالكذبِ، أو الغلطِ، أو الجهلِ، بما يُنقل، وبين العدل الحافظ الضابط المعروف بالعلم، والآثار، وعمدتُهم في نفس الأمر على التقليد، وإن ظنوا إقامتهُ بالبرهانيات»[2].

لهذا رأيتُ مِن المناسبِ أنْ يقفَ القارئُ الكريمُ على شيءٍ مِن حماقاتِ القومِ وسخافاتِهم وتلاعبِهم بكتابِ الله ﷻ عملًا بقولِ الله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

* فمِنْ تلاعُبِ الروافضِ بالقرآنِ الكريمِ قولُهم في قولِه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات:٢٤]، يعني: عن ولايةِ عَليٍّ، وهذا كذِبٌ موضوعٌ بالاتفاقِ، فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات:٢٢- ٢٦]. وهذا خطابٌ عن المشركين المكذِّبين بيومِ الدِّينِ، وهؤلاء يُسألُونَ عن توحيدِ الله والإيمانِ برسلِه واليومِ الآخر. وأيُّ مدْخلٍ لِحُبِّ عليٍّ في سؤالِ هؤلاء؟

وما يُفسِّرُ القرآنَ بهذا ويقولُ: النبيُّ ﷺ فسَّره بمثلِ هذا، إلا زنديقٌ مُلْحِدٌ،

---

(١) مقدمة الشيخ عبد الله الغنيمان لـ «مختصر منهاج السنة» (ص:٧)

(٢) «مختصر منهاج السنة» (ص:١٠)

مُتلَاعبٌ بالدِّين، قادِحٌ في دِينِ الإسلامِ، أو مُفرِطٌ في الجهْلِ، لا يدري ما يقولُ. وأيُّ فرْقٍ بينَ حُبِّ عليٍّ وطلحةَ والزبيرِ وسعدٍ وأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ؟!

* ومِن هذَيانِ الرافضةِ قولُـهم في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾: عليٌّ وفاطمةُ، ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾: النبيُّ صلَّى الله عليه وآله، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن:٢٢]: الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما.

وهذا وأمثاله، إنما يقولُه مَن لا يَعقلُ ما يقولُ. وهذا بالهذيانِ أشْبهَ منه بتفسيرِ القرآن، وهو مِن جنسِ تفسيرِ الملاحدةِ والقَرامِطةِ البَاطنيةِ للقرآن، بلْ هو شرٌّ مِنْ كثيرٍ منه. والتفسيرُ بمثْلِ هذا طريقٌ للملاحدةِ على القرآنِ والطعنِ فيه، بل تفسيرُ القرآن بِمثْلِ هذا مِنْ أعظمِ القدحِ فيه والطَّعنِ فيه.

وهو مِن إلحاداتِ الرافضةِ كقولهم: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]: علي، وكقولهم: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف:٤]: إنَّه عليُّ بنُ أبي طالب، ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء:٦٠]: بنو أمية، وأمثالُ هذا الكلامِ الذي لا يقولُه مَن يرجو للهِ وقارًا، ولا يقولُه مَن يؤمنُ بالله وكتابِه».[1]

*****

---

(١) ينظر: «مختصر منهاج السنة» (ص:٦٦١-٦٦٢، ٧٠١) مختصرا.

الفصل العاشر:

وسائل تدبر القرآن الكريم

إليك - أخي القارئ الكريم - جملةً مِن الأسباب التي أرجو أن تكون داعيةً ومُرَغِّبَةً في تدبرِ كلامِ الله سبحانه، ومعلومٌ أنه إذا جلَّ المطلوبُ فإنَّ الأكياسَ(١) مِن النَّاسِ يُسارعون إلى تحقيقِه، ويجتهدون في الوصولِ إليه، وإلى تحصيلِه، ألا وإنَّ مِن أعظمِ المطالبِ، وأجلِّ المقاصد فهْمَ مُرادِ الرَّبِ -سبحانه وتعالى- مِن خِطابه، ومقصودِه مِن كلامِه.

والذي يجمعُ هذه الوسائلَ والأسبابَ كلَّها قولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾[ق]. وأما على سبيلِ التفصيلِ فنذكرُ ما يفتحُ اللهُ علينا به، وهو الفتّاح العليم.

---

(١) الأكْياس: جمع، مفرده: الكَيِّس، وهو «العاقِلُ المُتبصِّرُ في الأمورِ النَّاظرُ في العواقِب»، «تحفة الأحوذي» (١٥٦/٧).

الوسيلة الأولى: «تَلَقِّي القرآنَ كما تلقَّاه الصحابةُ الكرامُ ﵃»

فمَن رام تدبرَ القرآنِ فليتلَقاه كما تلقَّاه الصحابةُ الكرامُ - رضوان الله عليهم-، فإنَّهم كانوا إذا تعلَّموا عشرَ آياتٍ، لم يتجاوزوها حتى يتعلموها، وما فيها من العلمِ والعملِ، وقد كان الواحدُ مِن الصحابةِ يَمكثُ في السُّورةِ الواحدةِ حِينًا مِن الدَّهر لتَدبُّرِها وتعَلُّمِ ما فيها، كما روى الإمامُ مالكٌ عن عبدِ الله بنِ عمر ﵄ أنه مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها[١]، ورحم الله الإمام مالكًا[٢] حيث يقول: «ولا يُصْلِحُ آخرَ هذه الأمةِ إلا ما أصلحَ أولَها»[٣]. فمن سلك سبيلهم ورَدَ معينَهم، وحصَّل تَحْصيلهم.

قال أبو عبدِ الرحمن السُّلَمِيُّ ﵀ :«حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ كَعُثْمَانِ بْنِ عفان وَعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهَا، حَتَّى يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»[٤].

---

(١) «الموطأ» (١/ ١٨٤)، رقم (٤٩٠).

(٢) الإمام مالك بن أنس: هو إمام دار الهجرة، صاحب الموطأ، أبو عبد الله، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي، كان ﵀ إماما، حافظا، مجودا، متقنا، وُلِد سنة ثلاثٍ أو أربعٍ وتسعين، أخذ العلمَ عن: نافعٍ، وسعيدٍ المقبري، وعامرِ بن عبدِ الله بن الزبير، وابنِ المنكدر، والزهريِّ، وعبدِ الله بن دينار، وغيرهم كثير، وروى عنه: الثوريُّ، والأوزاعيُّ، والليثُ بن سعد، والحمَّادان، وابنُ عيينة، وغيرُهم، قال البخاري: أصح الأسانيد كلها مالك عن نافع عن ابن عمر. مات ﵀ تعالى سنة تسع وسبعين ومائة، ودُفِن بالبقيع. يُنظر: «سير أعلام النبلاء»(٨/ ٤٨-١٣٥)، و«الثقات»(٧/ ٤٥٩-٤٦٠) ، و«تقريب التهذيب» (ص: ٩١٣).

(٣) «الشفا» (ص:٤٧٧).

(٤) ينظر: «تفسير ابن جرير» (١/ ٧٤)، ونحوه في «المسند» رقم (٢٣٤٨٢).

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدثًا عن الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: «كانت عنايتُهم بأخْذِ المعاني أعظمَ مِن عنايتِهم بالألفاظِ، وكانوا يأخذونَ المعانيَ أولا، ثم يأخذونَ الألفاظَ؛ ليضبطوا بها المعانيَ حتى لا تَشِذَّ عنهم. قال جُندب بن عبد الله البجلي[1] وعبد الله بن عمر[2]: تعلمنَا الإيمانَ ثم تعلمنَا القرآنَ؛ فازددنا إيمانًا»[3].

---

(١) روى ابن ماجه في «سُننه» رقم (٦١) عن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «كنَّا مع النبيِّ ﷺ ونحنُ فِتيَانٌ حَزَاوِرَةٌ، فتعلَّمنَا الإيمانَ قبلَ أنْ نتعَلَّمَ القرآنَ، ثمَّ تعلَّمْنَا القرآنَ، فازْدَدْنَا به إيمانًا»، وصحَّحه الألباني.

(٢) لم أقف على رواية ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، لكن روى الحاكم في «مستدركه» رقم (١٠٨) عنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّه قال: «لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَإِنَّ أَحَدَنَا يُؤْتَى الْإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ فِيهَا كَمَا تَعْلَمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ»، ثُمَّ قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا أَمْرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، يَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ». قال الحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صحيحٌ على شرطِ الشيخينِ، ولا أعرفُ له علَّةً، ولم يُخرِّجاه».

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة» للبعلي (٤/ ١٤١٤-١٤١٥).

الوسيلة الثانية: «ترتيلُ القرآنَ، وتحسينُ الصوت بتلاوتِه، وتجويدُه»

مما يُعينُ على تدبُّرِ القرآن ترتيلُه، وتحسينُ الصوت بتلاوتِه، وتجويدُه، فإنَّه نزلَ مُرتَّلًا، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]، وأمرَ -سبحانه- نبيَّه ﷺ بترتيلِه، فقال -جلَّ مِن قائلٍ عليمًا-: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل:٤].

قال العلَّامةُ الطاهرُ ابن عاشور رحمه الله عند قوله: ﴿تَرْتِيلًا﴾: «مصدرٌ منصوبٌ على المفعولِ المطلَقِ قُصِدَ به ما في التنكيرِ مِن معنى التعظيمِ، فصار المصدرُ مُبَيِّنًا لنوعِ الترتيل»(١).

وقد امتثل النبيُّ ﷺ أمرَ ربِّه؛ فكانت قراءتُه مَدًّا، فعنْ قتادةَ قال: «سُئِلَ أَنَسٌ كَيْفَ كَانَتْ قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ؟ فَقَالَ: كَانَتْ مَدًّا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يَمُدُّ بِبِسمِ الله، وَيَمُدُّ بِالرَّحْمَنِ، وَيَمُدُّ بِالرَّحِيمِ».(٢) رواه البخاري.

وعن أمِّ المؤمنين حفصةَ رضي الله عنها: أنَّ رسولَ الله ﷺ «كَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ، فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا».(٣) رواه مسلم.

وعن أبي جَمْرةَ رحمه الله قال: «قُلتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي رَجُلٌ سَرِيعُ القِرَاءَةِ، وَرُبَّمَا قَرَأْتُ القُرْآنَ فِي لَيْلَةٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لأَنْ أَقْرَأَ سُورَةً وَاحِدَةً أَعْجَبُ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْعَلَ مِثْلَ الَّذِي تَفْعَلُ، فَإِنْ كُنْتَ فَاعِلًا لَا بُدَّ فَاقْرَأْهُ قِرَاءَةً تُسْمِعُ أُذُنَيْكَ، وَيَعِيهِ قَلْبُكَ»(٤).

(١) «التحرير والتنوير» (مجلد ٨، ١٩/ ٢٠).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب مد القراءة، رقم (٥٠٤٦).

(٣) رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جواز النافلة قائما وقاعدا، رقم (٧٣٣).

(٤) «السنن الكبرى للبيهقي» (٣/ ١٣).

قال الإمامُ القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ : «الترتيلُ أفضلُ من الهذِّ؛ إذ لا يصحُّ التَّدبُّرُ مع الهذِّ»[1].

أمةَ القرآن:

«إنَّ مَن كان قبلكُم رأَوا القرآنَ رسَائلَ مِن ربِّهم، فكانوا يتدبَّرونَها بالليلِ، وينفِذُونَها بالنَّهار»[2]. قال عبدُ الله بنُ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا تَهُذُّوهُ هَذَّ الشِّعْرِ، وَتَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»[3].

وعن أبي وائل رَحِمَهُ اللَّهُ قال: جاء رجلٌ إلى عبدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يا أبا عبدِ الرَّحمنِ، إنِّي لأقرأُ المُفصَّلَ فى ركعةٍ»، فقال عبدُ الله: «**هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْرِ، إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِى الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ**» رواه مسلم[4].

وقال إسحاق بن إبراهيم الطبري: «ما رأيتُ أحدًا أخوف على نفْسِه، ولا أرجى للناس من الفُضَيل، كانت قراءتُه حزينةً شهيةً بطيئةً مترسلةً كأنه يُخاطِبُ إنسانًا، وكان إذا مرَّ بآية فيها ذِكرُ الجنَّة يُردِّدُ فيها وسَألَ»[5].

قال الإمامُ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : «قال العلماء: والترتيل مُستحب للتدبر، ولأنه أقربُ إلى الإجلال والتوقير، وأشدُّ تأثيرًا في القلب، ولهذا يستحب الترتيل للأعجمي الذي لا يفهم معناه»[6].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٨٩).

(٢) عزاه النووي إلى الحسن في: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٥١).

(٣) سبق تخريجه، ص (٣٨).

(٤) سبق تخريجه، ص (٣٢).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢٧-٤٢٨) ، و«تهذيب الكمال» (٢٣/ ٢٩٢)، و«حلية الأولياء» (٨/ ٨٦).

(٦) «المجموع شرح المهذب» (٢/ ١٣٣).

وقد أمرَ النبيُّ ﷺ بتحسين الصوت عند قراءة القرآن؛ لأن ذلك أدعى إلى الإقبالِ عليه والخشوعِ وكمالِ التأثر، حتى قال النبيُّ ﷺ:«**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ**» رواه البخاري(١).

وقال ﷺ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ**»، رواه الشيخان(٢).

وليس معنى هذا قراءتُه بالنغماتِ والقوانين الموسيقيةِ وما يُعرَف في هذه الأيام بـ «المقامَات»، فإنَّ كلامَ الله يُصانُ ويُجَلُّ ويُنزَّه عن ذلك كله.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومعناه: أنَّ اللهَ ما استمعَ لشيءٍ كاستماعِه لقراءةِ نَبيٍّ يجهرُ بقراءتِه ويُحسِّنُها، وذلك أنه يجتمعُ في قراءةِ الأنبياءِ طِيبُ الصوتِ لكمال خَلقِهم، وتمامُ الخشية، وذلك هو الغايةُ في ذلك وهو - سبحانه وتعالى- يسمعُ أصواتَ العبادِ كُلِّهم بَرِّهم وفاجِرِهم؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «سُبحَانَ الذي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ»(٣)، ولكنَّ استماعَه لقراءةِ عبادِه المؤمنين أعظمُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١] الآية، ثمَّ استماعَه لقراءة أنبيائه أبْلَغُ، كما دلَّ عليه هذا الحديثُ العظيمُ».(٤)

---

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري في التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٣-١٤]، رقم (٧٥٢٧).

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري في فضائل القرآن، باب مَن لم يَتغنَّ بالقُرآنِ، رقم (٥٠٢٤)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٢).

(٣) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[النساء:١٣٤] ، رقم (٧٣٨٥) بلفظ: «الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ».

(٤) «فضائل القرآن» (ص:١٧٩-١٨٠).

وقد كان نَبيُّنا ﷺ أحسنَ الناس صوتًا بالقرآن؛ قال البراء رضي الله عنه: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين:١] فِي العِشَاءِ، وَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوْتًا مِنْهُ، أَوْ قِرَاءَةً» رواه البخاري ومسلم[١].

وحينما استمعَ النبيُّ ﷺ إلى قراءة أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه أثنى على قراءته وقال له: «يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، وفي رواية: «لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»[٢]، وعند البيهقيِّ أنَّ أبا موسى رضي الله عنه قال: «لَوْ عَلِمْتُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا»[٣].

قال الحافظُ ابنُ كثير رحمه الله: «فدلَّ على جواز تعاطِي ذلك وتكلُّفِه».[٤]

وفي «شرح رياض الصالحين» للعلّامة الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «في هذا دليلٌ على أنَّ الإنسانَ لو حسَّن صوتَه بالقرآن لأجلِ أنْ يتلذذَ السامعُ ويُسرَّ به فإنَّ ذلك لا بأس به، ولا يُعدُّ مِن الرياء ....، بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام الله عز وجل حتى يُسَرَّ الناسُ به».[٥]

قال الحافظُ ابنُ كثير رحمه الله: «والغرضُ أنَّ المطلوبَ شرعًا إنما هو التحسينُ بالصوتِ الباعثُ على تَدَبُّرِ القرآنِ وتفهُّمِهِ، والخشوعِ والخضوعِ والانقيادِ للطاعة.

---

(١) رواه البخاري في الأذان، باب القراءة في العشاء، رقم (٧٦٩)، ومسلم في الصلاة، باب القراءة في العشاء، رقم (٤٦٤).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب حسن الصوت بالقراءة، رقم (٥٠٤٨)، ومسلم، واللفظ له، في صلاة المسافرين، باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن، رقم (٧٩٣).

(٣) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٨) رقم (٤٧٠٨).

(٤) «فضائل القرآن» (ص:١٩١).

(٥) «شرح رياض الصالحين» (٤/ ٦٢٢).

فأما الأصواتُ بالنغماتِ الـمُحْدَثَةِ، الـمُرَكَّبة على الأوزان والأوضاعِ الملهيةِ والقانونِ الموسيقائي، فالقرآن يُنَزَّهُ عن هذا ويُجَلُّ وَيُعَظَّمُ أن يُسْلَكَ في أدائِه هذا المذهب»[1].

وقال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التطريبُ والتغنِّي على وجهين، أحدُهما: ما اقتضته الطبيعةُ، وسمحت به مِن غيرِ تكلُّفٍ ولا تمرينٍ ولا تعليمٍ، بل إذا خُلِّيَ وطبعَه، واسترسلت طبيعتُه، جاءت بذلك التطريبِ والتلحينِ، فذلك جائز، وإنْ أعان طبيعتَه بفضل تزيين وتحسينٍ كما قال أبو موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ للنبي ﷺ: «لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تسْمَعُ لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا»[2]، والحزينُ ومَن هاجَه الطربُ والحبُّ والشوقُ لا يملك مِن نفسه دفعَ التحزينِ والتطريبِ في القراءةِ، ولكنَّ النفوس تقبله وتَسْتَحْلِيه لموافقته الطبْعَ، وعدمِ التكلُّفِ والتصنُّعِ فيه، فهو مطبوعٌ لا مُتطبَّع، وكَلِفٌ لا مُتكلَّف، فهذا هو الذي كان السَّلَفُ يفعلونه ويستمعونه، وهو التغني الممدوحُ المحمودُ، وهو الذي يتأثَّر به التَّالي والسَّامِعُ، وعلى هذا الوجه تُحملُ أدلةُ أربابِ هذا القول كُلُّها.

الوجه الثاني: ما كان مِن ذلك صناعةً من الصنائع، وليس في الطبعِ السماحةُ به، بل لا يحصل إلا بتكلُّفٍ وتصنُّعٍ وتمرُّن، كما يُتعَلَّمُ أصواتُ الغناءِ بأنواعِ الألحانِ البسيطة، والمركبة على إيقاعاتٍ مخصوصةٍ وأوزانٍ مخترعةٍ، لا تحصل إلا بالتعلُّمِ والتكلُّف، فهذه هي التي كرهها السلفُ، وعابوها، وذمُّوها، ومنعوا القراءة بها، وأنكروا على مَن قرأ بها»[3].

---

(١) «فضائل القرآن» (ص:١٩٥).
(٢) سبق تخريجه، (ص: ٧٩).
(٣) «زاد المعاد» (١/ ٤٧٤).

والصوتُ الحسَن هِبةٌ من الله تعالى، ففي كتاب «أخلاق حملة القرآن» للإمامِ الآجُرِّيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «ينبغي لمن رزقه اللهُ حُسْنَ الصوتِ بالقرآنِ أنْ يعلمَ أنَّ اللهَ قد خصَّه بخيرٍ عظيمٍ فَلْيَعْرِفْ قدْرَ ما خَصَّه اللهُ به، وليقرأْ لله لا للمخلوقينَ ولْيحذَرْ مِن الميلِ إلى أنْ يُستمَعَ منه لِيحْظَى به عند السامعين رغبةً في الدنيا، والميلِ إلى حُسْنِ الثناء والجاه عند أبناء الدنيا، والصلاةِ بالملوكِ دون الصلاةِ بعوامِّ الناس، فمَن مالتْ نفسُه إلى ما نهيتُه عنه خِفتُه أنْ يكون حسْنُ صوتِه فتنةً عليه، وإنما ينفعه حسْنُ صوتِه إذا خَشِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في السر والعلانية، وكان مرادُه أنْ يُستمَعَ منه القرآنُ؛ لِينتبهَ أهلُ الغفلةِ عن غفلتِهم، فيرغبُوا فيما رغَّبَهم اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، وينتهوا عما نهاهم، فمَن كانت هذه صفتَه انتفعَ بحُسْنِ صوتِه، وانتَفَعَ به الناسُ»[1].

«وقد كان أصحابُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا اجتمعوا أمَرُوا واحدًا منهم أنْ يقرأَ، والباقي يستمعون، وكان عمرُ بنُ الخطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا أبا موسى، ذَكِّرْنا ربَّنا[2]، فيقرأ أبو موسى وهُم يستمعون»[3].

---

(١) «أخلاق حملة القرآن» (ص: ١٦١).

(٢) أخرجه الدارمي (٤/ ٢١٩٠) رقم (٣٥٣٦)، وأخرجه ابن سعد (٤/ ١٠٩)، وأبو نُعَيم في «الحلية» (١/ ٢٥٨)، وأخرجه عبد الرزاق (ج٢/ رقم ٤١٧٩، ٤١٨٠، ٤١٨١)، وابن حِبَّان (١٦/ ١٦٨-١٦٩) رقم (٧١٩٦)، كلهم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن أن عمر بن الخطاب ... إلخ.

قال الشيخ أبو إسحاق الحويني في تعليقه على الخبر في تحقيقه لكتاب: «فضائل القرآن» للحافظ ابن كثير، (ص:١٩١-١٩٢): «وهو منقطع بين أبي سلمة وعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولم يسمع أيضًا من أبي موسى كما قال أحمد، على ما ذكره ابن أبي حاتم في «المراسيل» (ص:٢٥٥) رقم (٩٤٨)، وله طريقان آخران عند ابن سعد (٤/ ١٠٩)، أحدها معضل والآخر منقطع».

(٣) «جامع المسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٨٩).

الوسيلة الثالثة: «الإكثارُ مِن تلاوةِ القرآن»

ومما يُعينُ على تدبُّرِ القرآن الإكثارُ مِن تلاوته، فإن القرآنَ نعمَ السميرُ ونعمَ الأنيس.

نِعمَ السَّميرُ كتابُ الله إنَّ لَهُ ** حَلَاوةً هِي أحْلَى مِن جَنَى الضَرَبِ[1]
بِهِ فُنونُ المعَانِي قَدْ جُمِعْنَ فَمَا ** يَفْتَنَ مِن عَجَبٍ إلَّا إلَى عَجَبِ
أَمْرٌ، ونَهْيٌ، وأَمْثَالٌ، ومَوْعِظَةٌ، ** وحِكْمَةٌ أُودِعَتْ في أفْصَحِ الكُتُبِ
لَطَائِفٌ يَجْتَلِيهَا كُلُّ ذِي بَصَرٍ ** ورَوْضَةٌ يَجْتَنِيهَا كُلُّ ذِي أَدَبِ[2]

فمَن رامَ فهمَ القرآنِ؛ لزِمه أن يجعلَه أنيسَه ويتخذَه رفيقَه وجليسَه، فإنَّ «قارئَه لا يَملُّ قراءتَه، وسامعَه لا تـمُجُّه مسامِعُه، بل الإكبابُ على تلاوتِه، وترديدُه يزيدُه حلاوةً ومحبةً، لا يَزال غضًّا طريًا»[3]، واعتَبِر ذلك بسورةِ الفاتحة، فعلى الرغم مِن كثرةِ تَردَادِها، فإنَّ ذلك لم يزدْها إلا جِدةً وحلاوة.

وكيفَ يلتذُّ بالقرآنِ مَن ليس له وِردٌ يُحافظُ عليه؟! فإن مَن أحبَّ شيئًا أكثرَ مِنْ ذِكرِه.

وَإِنَّ كِتَابَ الله أَوْثَقُ شَافِعٍ ** وَأَغْنَى غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلاً
وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ ** وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاً[4]

وهذا أمرٌ معروفٌ، فإنَّ مَن أكثرَ مِن تلاوةِ القرآنِ، رسخَت معانيه في قلْبِه بسببِ تَرْدادِهِ، وحينئذ يُرزَقُ ملَكَةَ التدبُّرِ من كثرةِ التلاوة.

(١) «الضَرَب -بفتحتين-: العسل الأبيض». «المصباح المنير» (ص:١٣٦).
(٢) «البحر المحيط» (١/ ١٠٢).
(٣) «نهاية الإرب في فنون الأدب» (١٨/ ٢٠٢).
(٤) «الشاطبية» أبيات (١٠، ١١).

يَزِيـدُ عَـلى طُـولِ التَّأَمُّـلِ بَهْجَـةً ** كَأَنَّ العُيونَ النَّاظِرَاتِ صَـيَاقِلُ[(١)(٢)]

وما لا يَفْهَمُه اليوم يفْهَمُه غدًا، قال الإمامُ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ في «مناهل العرفان»: «إنَّ مَن يقرأ القرآنَ في يومِه وهو غافلٌ عن معانيه، يقرؤه في غدِه وهو ذاكرٌ لها، ومَن قرأه في غدِه وهو ذاكرٌ لها، أوشك أنْ يعملَ بعد غدٍ بهديها. وهكذا ينتقلُ القارئُ مِن درجةٍ إلى درجةٍ أرقَى منها، حتى يصلَ إلى الغايةِ بعد تلك البدايةِ.

.... ** كلُّ مَنْ سَارَ على الدَّرْبِ وصَلْ[(٣)]»[(٤)]

قال ثابتٌ البُنَانِيُّ[(٥)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَابَدْتُ[(٦)] القُرْآنَ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَتَنَعَّمْتُ بِهِ عِشْرِيْنَ سَنَةً».[(٧)]

فمَن وجدَ مِن نفسِه سآمةً ومللًا عند تلاوةِ القرآن، فليتفقَّد قلبَه، وليُحاسِب نفسَه، وقد قال بعضُ السَّلفِ: «اطلبْ قلبَك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن،

---

(١) صياقِلُ: «الصَّيْقَل: شَحَّاذُ السُّيوف وجَلاَّؤها، والجمع: صَيَاقِل وصياقِلةٌ»، «لسان العرب» (٧/ ٣٤٧).

(٢) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٢).

(٣) هذا عَجُزُ بيتٍ من «لامية ابن الوردي» بيت رقم(٢٤)، وصدْرُه:

لَا تَقُلْ قَدْ ذَهَبَتْ أَرْبَابُه

(٤) «مناهل العرفان» (٢/ ١٠٥).

(٥) ثابت بن أسلم البُنَاني - بضم الموحدة ونونين مُخففين-: الإمام الحجة القدوة أبو محمد البصري، ثقةٌ من أعبَدِ الناس، روى عن عبد الله بن عمر وأنس بن مالك وعَبد الله بن مغفل وعبد الله بن الزبير وعدة، مات سنة ثلاث- وقيل: سبع- وعشرين ومائة، وله ست وثمانون سنة. يُنظر: «تقريب التهذيب» (ص:١٨٥)، و«تذكرة الحفاظ» (١/ ١٢٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٠ -٢٢٥).

(٦) «مكابَدَةُ الأمر: معاناةُ مشقتِه، وكابَدْت الأَمر: إذا قاسيت شدته» «لسان العرب» (١٢/ ١٠).

(٧) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٨٩)، و«لطائف المعارف»(ص:١١٤)، وفي «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٢٤) للذهبي بلفظ: «كَابَدْتُ الصَّلَاةَ عِشْرِيْنَ سَنَةً، وَتَنَعَّمْتُ بِهَا عِشْرِيْنَ سَنَةً».

وفي مجالسِ الذِّكرِ، وفي أوقاتِ الخَلْوة؛ فإن لم تَجِدْه في هذه المواطنِ، فَسَل اللهَ أنْ يَمُنَّ عليك بقلبٍ، فإنه لا قلبَ لك»[1].

ولو يعلم الناسُ ما في تلاوةِ القرآنِ؛ لأكبُّوا عليها آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

وكان مُطرِّفُ بنُ الشِّخِيرِ[2] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «هذه آيةُ القراء»[3].

وعن عبدِ الله بنِ مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»**، رواه الترمذي[4].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارٌ لَهُ فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُهْلِكُهُ**

---

(١) «الفوائد» (ص:٢١٨).

(٢) مطرف بن عبد الله بن الشِّخِير - بكسر الشين وتشديد الخاء-: أبو عبد الله العامري البصري، وُلِد في حياة رسول الله ﷺ، ثقةٌ، عابدٌ، فاضلٌ، روى عن أبيه، وأبي هريرة، وعليٍّ، وعمار، وأبي ذر، وعثمان، وعائشة، ﷺ وغيرهم، وحدَّث عنه: الحسن البصري، وقتادة، وأبو التياح يزيد بن حميد، وثابت البناني، وخلق سواهم، مات سنة سبع وثمانين. يُنظر: «الثقات» (٥/ ٤٢٩-٤٣٠)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٨٧-١٩٥)، و«تقريب التهذيب» (ص: ٩٤٨).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٣٤٣) (٣٦١٢٨)، وابن المبارك في «الزهد» رقم (٧٩٤) (ص:٢٤٣)، وابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٩/ ٣٦٥ - ٣٦٦).

(٤) رواه الترمذي في ثواب القرآن، باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، رقم (٢٩١٠)، وصحَّحه الألباني.

فِي الحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلاَنٌ، فَعَمِلتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ»، رواه البخاري(١).

وعن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **«لاَ حَسَدَ إِلا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ»**، رواه الشيخان(٢).

قال الحافظُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «ومضمونُ هذين الحديثين أنَّ صاحبَ القرآنِ في غِبْطَةٍ، وهي حُسْنُ الحال، فينبغي أنْ يكونَ شديدَ الاغتباطِ بما هو فيه، ويُستحبُّ تغبيطُه بذلك، يُقال: غَبَطَه يَغْبِطُه - بكسْر البَاء- غبْطًا؛ إذا تمنَّى مثلَ ما هو فيه مِن النِّعمة، وهذا بخلافِ الحسدِ المذموم، وهو تمنِّي زوالِ نعمةِ المحسودِ عنه، سواء حصلتْ لذلك الحاسدِ أو لا، وهذا مذمومٌ شرعًا مُهْلِكٌ، وهو أولُ معاصي إبليس حين حَسَد آدمَ ما منَحه اللهُ تعالى مِن الكرامةِ والاحترامِ والإعْظامِ»(٣).

وقد أمرَ اللهُ -تعالى- بملازمةِ تلاوةِ كتابِه، فقال -سبحانه-: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وقال تعالى آمرًا نبيَّه ﷺ أن يقول: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل:٩١-٩٢].

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، رقم (٥٠٢٦).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، رقم (٥٠٢٥)، ومسلم، واللفظ له، في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (٨١٥).

(٣) «فضائل القرآن» لابن كثير، (ص:٢٠١).

ولهذا كان السَّلفُ الصالحُ - رحمهم الله - يُلازمونَ تلاوةَ القرآن، ومِن أشهرِهِم الخليفةُ الراشدُ العابدُ الزاهد، عثمانُ بنُ عفَّان رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، وهو القائلُ: «لَوْ طَهُرَتْ قُلُوبُكُمْ مَا شَبِعْتُم مِنْ كَلاَمِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ»(١)، وقال رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ وَلاَ لَيْلَةٌ إِلَّا أَنْظُرُ فِي كَلاَمِ اللهِ، يَعْنِي القِرَاءَةَ فِي المُصْحَفِ»(٢).

وقد قتلَه رَضِيَٱللَّهُعَنهُ الخارجون المعتدون وهو ناشرٌ كتابَ الله بين يديه يتلوه، فقتلوه- قبَّحهم الله- وهو صائم، وبالقرآن قائم، وفي ذلك قال حسَّانُ بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنهُ:

ضَحَّوا بأشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُودِ ** يُقَطِّعُ الليلَ تسْبيحًا وَقُرْآنَا(٣)

وقد كان لِنَبِيِّنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ حِزبٌ مِن القرآن يقرأه كلَّ يوم، لا يُخِلُّ به، قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «كان له صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ حِزبٌ يقرؤه، ولا يُخِلُّ به، وكانت قراءتُه ترتيلًا لا هَذًّا ولا عجلةً، بل قِراءةً مفسَّرَةً حرفًا حرفًا، وكان يُقَطِّعُ قراءَتَه آيةً آيةً، وكان يمدُّ عند حروفِ المدِّ»(٤).

وفي «صحيح مسلم» عن عمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ»(٥).

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد، (ص:١٠٦) رقم (٦٨٠).

(٢) «المرجع السابق» رقم(٦٨١).

(٣) «ديوان حسان بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنهُ» (١/ ٩٦).

(٤) «زاد المعاد» (١/ ٤٦٣).

(٥) حديث عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنهُ: رواه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، رقم (٧٤٧).

وكان السَّلفُ - رحمهم الله - يُحزِّبون القرآنَ، كما في حديث أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه قال: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فِي وَفْدِ ثَقِيفٍ - قَالَ: فَنَزَلَتِ الأَحْلافُ[1] عَلَى المـُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، وَأَنْزَلَ رَسُولُ الله ﷺ بَنِي مَالِكٍ فِي قُبَّةٍ لَهُ. وَكَانَ فِي الوَفْدِ الَّذِينَ قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ ثَقِيفٍ، قَالَ: كَانَ كُلَّ لَيْلَةٍ يَأْتِينَا بَعْدَ العِشَاءِ يُحَدِّثُنَا قَائِمًا عَلَى رِجْلَيْهِ حَتَّى يُرَاوِحَ بَيْنَ رِجْلَيْهِ مِنْ طُولِ القِيَامِ، وَأَكْثَرُ مَا يُحَدِّثُنَا مَا لَقِيَ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ يَقُولُ: لَا سَوَاءً، كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ مُسْتَذَلِّينَ -بِمَكَّةَ- فَلَمَّا خَرَجْنَا إِلَى المَدِينَةِ كَانَتْ سِجَالُ الحَرْبِ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، نُدَالُ عَلَيْهِمْ وَيُدَالُونَ عَلَيْنَا، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً أَبْطَأَ عَنِ الوَقْتِ الَّذِي كَانَ يَأْتِينَا فِيهِ، فَقُلْنَا: لَقَدْ أَبْطَأْتَ عَنَّا اللَّيْلَةَ. قَالَ: إِنَّهُ طَرَأَ عَلَيَّ جُزْئِي مِنَ القُرْآنِ فَكَرِهْتُ أَنْ أَجِيءَ حَتَّى أُتِمَّهُ.

قَالَ أَوْسٌ[2]: سَأَلْتُ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ كَيْفَ يُحَزِّبُونَ القُرْآنَ؟ قَالُوا: ثَلَاثٌ وَخَمْسٌ وَسَبْعٌ وَتِسْعٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ وَثَلَاثَ عَشْرَةَ وَحِزْبُ المـفَصَّلِ وَحْدَهُ»[3].

وهذا يدل على أنَّهم كانوا يُـحزِّبون بالسورِ، لا بالأجزاء.

وقد جمعها بعضُ النبلاء بقوله «فمي بشوق»، فكلُّ حرفٍ من هذه الجملة يرمزُ إلى السورة الأولى، وإليك بيانها في هذا الجدول:

---

(١) «قوله: فنزلت الأحلاف: الأحلاف أحد قبيلي ثقيف؛ لأنَّ ثقيفًا فرقتان: بنو مالك، والأحلاف. والأحلاف -أيضا- بطن من كلب، والأحلاف من قريش ست قبائل. ويقال في النسبة إليهم: أحلافي، لأن الأحلاف صار اسمًا لهم، كالأنصار صار اسمًا للأوس والخزرج. قلت: أصله من الحلف، وهو المعاقدة، والمعاهدة، على التعاضد، والتساعد، والاتفاق» ا. هـ من «شرح سنن أبي داود»للعيني (٥/ ٢٩٧-٢٩٨).

(٢) هو أوس بن حذيفة.

(٣) رواه أبو داود، واللفظ له، في الصلاة، باب تحزيب القرآن، رقم (١٣٩٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب في كم يستحب أن يختم القرآن، (١٣٤٥)، وضعَّفه الألباني، وأورده شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «دقائق التفسير» (١/ ٨٠).

ف	م	ي	ب	ش	و	ق
٣	٥	٧	٩	١١	١٣	المفصل
الفاتحة البقرة	المائدة	يونس	بني إسرائيل «الإسراء»	الشعراء	الصافات ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾	ق
آل عمران	الأنعام	هود	الكهف	النمل	ص	
النساء	الأعراف	يوسف	مريم	القصص	الزمر	
	الأنفال	الرعد	طه	العنكبوت	غافر	
	التوبة	إبراهيم	الأنبياء	الروم	فصلت	
		الحجر	الحج	لقمان	الشورى	
		النحل	المؤمنون	السجدة	الزخرف	
			النور	الأحزاب	الدخان	
			الفرقان	سبأ	الجاثية	
				فاطر	الأحقاف	
				يس	الفتح	
					محمد	
					الحجرات	
						الناس

وكان بعضُ السَّلفِ إذا ما فاتَه حزبُه مِن القرآنِ تأثَر لذلك تأثُّرًا بالِغًا، واللهُ المستعانُ، قال أبو داود الجفري رَحِمَهُ اللهُ: «دخلتُ على كرزِ بن وبرةٍ[1] بيتَه، فإذا هو

(١) كرزِ بن وبرةٍ: «أبو عبد الله، كرز بن وبرة الحارثي، الكوفي، الزاهد القدوة، روى عن أنس بن مالك ومجاهد وعطاء وغيرهم»، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٨٤)، «صفة الصفوة» (٢/ ٥٥٧-٥٥٨).

يبكي، فقلت له: ما يُبكيكَ؟ قال: إنَّ بابي مغلقٌ، وإنَّ سِتْري لمسبلٌ، ومُنِعتُ حِزبي أنْ أقرأه البارحةَ، وما هو إلا مِن ذَنْبٍ أحدثتُه»[1].

ولهذا توجه الذَّمُّ نحو كلِّ ما أشعرَ بالتساهلِ وقلةِ الاكتراثِ بكثرةِ التلاوةِ؛ فإنَّ عدمَ التعاهدِ يُورثُ النسيانَ، كما في الصحيحين مِن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**بِئْسَ مَا لأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ: نَسِيتُ آيَةَ كَيْتَ وَكَيْتَ، بَل نُسِّيَ، وَاسْتَذْكِرُوا القُرْآنَ، فَإِنَّهُ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**»[2].

قال الإمامُ القرطبي رحمه الله: «وهذا اللفظ -[يعني: نُسِّيَ]- رُوِّيناه مشدَّدًا مبنيًّا لما لم يُسَمَّ فاعلُه، وقد سمعناه مِن بعض مَن لقيناه بالتخفيف، ولكل منهما وجهٌ صحيح، فعلى التشديد يكون معناه: أنه عوقب بتكثير النسيان عليه؛ لما تمادى في التفريط. وعلى التخفيف يكون معناه: تُرِك غيرَ مُلتفَتٍ إليه، ولا مُعْتَنىً به ولا مرحوم»[3].

ورحمَ اللهُ الإمامَ أبا إسحاقَ السَّبِيعي وهو يُوصي شبابَ الإسلامِ في اغتنامِ شبابِهم وقوَّتِهم، فيقول: «يا معشرَ الشبابَ: اغتنموا -يعني: قوتكم وشبابكم- قلَّما مرَّتْ بي ليلةٌ إلا وأنا أقرأُ فيها ألفَ آيةٍ، وإني لأقرأُ البقرةَ في ركعةٍ، وإني لأصومُ الأشهرَ الـحُرُمَ، وثلاثةَ أيامٍ مِن كلِّ شهْرٍ والاثنين والخميس، حدثنا أحمدُ بن عمران، سمعتُ أبا بكر يقول: قال أبو إسحاق: ذهبتِ الصلاةُ مني وضَعُفْتُ،

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/ ٧٩)، «صفة الصفوة» (٢/ ٥٥٧-٥٥٨).

(٢) رواه البخاري، واللفظ له، في فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، رقم (٥٠٣٢)، ومسلم في صلاة المسافرين، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول نسيت آية كذا، وجواز قول: أنسيتها، رقم (٧٩٠).

(٣) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٧/ ٥٣).

وإني لأصلي فما أقرأُ وأنا قائمٌ إلا بالبقرةِ وآلِ عمرانَ، ثمَّ قال الأخنسيُّ: حدثنا العلاءُ بن سالم العبدي قال: ضعُفَ أبو إسحاق قبل موتِه بسنتين، فما كان يَقدِرُ أن يقومَ حتى يُقامَ، فإذا استتمَ قائمًا قرأَ وهو قائمٌ ألفَ آية»(١).

وهذا الأثرُ يُذكِّرُنا بما في «الصحيحين» من حديث عائشةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ كَانَ يُصَلِّي جَالِسًا، فَيَقْرَأُ وَهُوَ جَالِسٌ، فَإِذَا بَقِيَ مِنْ قِرَاءَتِهِ قَدْرُ مَا يَكُونُ ثَلَاثِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ آيَةً، قَامَ فَقَرَأَ وَهُوَ قَائِمٌ، ثُمَّ رَكَعَ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ يَفْعَلُ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ.(٢)

وترجم الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحه» بقوله: بابٌ فِي كَمْ يُقْرَأُ القُرْآنُ، وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل:٢٠].

وأوردَ حديثَ عبدِ الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وفيه قال: أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَبٍ، فَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ(٣) فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا، فَتَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رَجُلٍ، لَمْ يَطَأْ لَنَا فِرَاشًا، وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا(٤) مُذْ أَتَيْنَاهُ، فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ، ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «الْقَنِي بِهِ»، فَلَقِيتُهُ بَعْدُ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قَالَ: كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: «وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟» قَالَ: كُلَّ لَيْلَةٍ، قَالَ: «صُمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلَاثَةً، وَاقْرَأِ القُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ»،

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٩٧).

(٢) رواه البخاري في تقصير الصلاة، باب إذا صلى قاعدا، ثم صحَّ، أو وجد خفة، تمَّم ما بقي، رقم (١١١٩)، ورواه مسلم في صلاة المسافرين، باب جواز النافلة قائما وقاعدا، رقم (٧٣١).

(٣) «كَنَّتَه:- بفتح الكاف وتشديد النون- هي زوج الولد» «فتح الباري»(٩/ ١١٩).

(٤) «لم يُفَتِّش لَنا كَنَفًا: كذا للأكثر بفاءٍ ومُثناة ثقيلة وشين معجمة، وفي رواية أحمد والنسائي والكشميهني: **ولم يغش**، بغين معجمة ساكنة بعدها شين معجمة، وكنَفًا - بفتح الكاف والنون بعدها فاء- هو السِّتر والجانِب، وأرادتْ بذلك الكناية عن عدم جماعه لها؛ لأن عادة الرجل أن يُدخل يدَه مع زوجته في دواخل أمرها، وقال الكرماني: يحتمل أن يكون المرادُ بالكنَف الكنِيف، وأرادت أنه لم يَطعم عندها حتى يحتاج إلى أن يُفتِّش عن موضع قضاء الحاجة» ا.هـ من«فتح الباري»(٩/ ١٢٠).

قَالَ: قُلتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي الجُمُعَةِ»، قُلتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًا»، قَالَ: قُلتُ: أُطِيقُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: «صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ، صَوْمَ دَاوُدَ، صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، وَاقْرَأْ فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً»، فَلَيْتَنِي قَبِلْتُ رُخْصَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَذَاكَ أَنِّي كَبِرْتُ وَضَعُفْتُ، فَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْضِ أَهْلِهِ السُّبْعَ مِنَ القُرْآنِ بِالنَّهَارِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ يَعْرِضُهُ مِنَ النَّهَارِ، لِيَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ بِاللَّيْلِ، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَرَ أَيَّامًا، وَأَحْصَى وَصَامَ مِثْلَهُنَّ؛ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَتْرُكَ شَيْئًا فَارَقَ النَّبِيَّ ﷺ عَلَيْهِ. قال أبو عبدِ الله: وقالَ بعضُهم: فِي ثَلَاثٍ، وَفِي خَمْسٍ، وَأَكْثَرُهُمْ عَلَى سَبْعٍ(١).

قال الإمامُ النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كان السَّلفُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم لهم عاداتٌ مختلفةٌ في قدْر ما يختمون فيه...، وأما الذين ختموا القرآنَ في ركعةٍ فلا يُحْصَوْنَ لكثرتِهم، فمِنَ المتقدِّمين عثمانُ بن عفان(٢) وتميمٌ الدَّاري وسعيدُ بن جبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، ختمةً في كلِّ ركعةٍ في الكعبةِ»(٣).

قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا وأمثالُه مِن الصحيحِ عن السَّلفِ محمولٌ إمَّا على أنَّه ما بَلغَهم في ذلك حديثٌ مما تَقدَّمَ، أو أنهم كانوا يفهمونَ ويتفكَّرون فيما يقرؤونه مع هذه السُّرعة، واللهُ - سبحانه وتعالى - أعْلَم».(٤)

وأخبرنا فضيلةُ الشيخ الفقيهِ محمدُ بن المختار الشنقيطي المدرسُ بالمسجد النبوي عن والده أنه ربما ختَمَ القرآنَ في ليلة، قال: سألتُه عن إمْكان ذلك،

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، رقم (٥٠٥٢).

(٢) قال الإمامُ الترمذي في فضائل القرآن، رقم (٢٩٤٦): «وروي عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يقرأُ القرآنَ في ركعةٍ يوتر بها، وروي عن سعيد بن جبير أنه قرأَ القرآنَ في ركعةٍ في الكعبةِ»، وذكر نحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٢٩٥) رقم (٣٧١٧)، وابن المبارك في «الزهد» (ص:٣٦٢) رقم (١٢٧٦).

(٣) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٥٤، ص: ٥٧).

(٤) «فضائل القرآن» (ص:٢٦٠).

فأجاب: أن نعم. وقد رأيتُ ذلك منه في ليلة مِن الليالي، صلَّى العشاءَ ثم صفَّ قدَميه مُصليا في غرفتِه مِن المنزل، واستفتحَ بالبقرةِ وختمَ عند الفجرِ، رحمه الله رحمةً واسعةً.

قال الحافظُ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما ورَدَ النَّهيُّ عن قراءة القرآن في أقلَّ مِن ثلاث[1] على المداومة على ذلك. فأما في الأوقاتِ المفضَّلَةِ- كشهر رمضان- خصوصًا الليالي التي يُطلَب فيها ليلةُ القدْر، أو في الأماكن المفضَّلةِ كمكة لِـمَن دخلها مِن غير أهلِها، فيُستحبُّ الإكثارُ فيها مِن تلاوة القرآن؛ اغتنامًا للزمان والـمكان. وهـو قولُ أحمدَ وإسحاقَ وغيرِهما مِن الأئمة، وعليه يـدُلُّ عملُ غيرِهم»[2].

ولهذا كان الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ يختِمُ في رمضانَ ستين ختمةً، في كلِّ يوم ختمتين. قال أبو بكر بن زياد النيسابوري: سمعتُ الربيعَ يقولُ: كان الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ يختِم القرآنَ في كلِّ رمضانَ ستين ختمة[3].

قال الإمامُ النووي رَحِمَهُ اللهُ: «والاختيارُ أنَّ ذلك يختلفُ باختلافِ الأشخاص؛ فمَن كان يَظْهَرُ له بدقيق الفِكْر لطائفُ ومعارفُ؛ فليقتصر على قدْرٍ يحصُلُ له به كمالُ فهْمِ ما يقرؤه، وكذا مَن كان مشغولاً بنشْر العِلم أو غيره مِن مُهِمَّاتِ الدِّين ومصالحِ المسلمين العامة؛ فليقتصر على قدْرٍ لا يحصلُ بسببِه إخلالٌ بما هو مُرْصَدٌ له، وإنْ لم يكن مِن هؤلاء المذكورين فليستكثِر ما أمكنَه مِن غير خروجٍ إلى حدِّ

---

(١) كما في الحديث الذي رواه أبو داود: (١٣٩٤)، والترمذي: (٢٩٤٩)، وغيرهما عن عبدِ الله بنِ عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ»، صحَّحه الألباني.

(٢) «لطائف المعارف» (ص: ٤٠٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٨٣).

المللِ والهذرمة[1]، وقد كَرِه جماعةٌ مِن المتقدمين الخَتْمَ في يومٍ وليلةٍ»[2]، «وكان الإمامُ أحمدُ رحمه الله يقرؤه في كل سبع»[3].

قال الإمامُ النوويُّ رحمه الله: «وأما الذين ختموا في الأسبوع مرةً فكثيرون. نُقِل عن عثمانَ بن عفان رضي الله عنه وعبدِ الله بن مسعود وزيدِ بن ثابت وأُبي بن كعب رضي الله عنهم، وعن جماعةٍ من التابعين كعبدِ الرحمن بن يزيد وعلقمةَ وإبراهيمَ رحمهم الله»[4].

وسُئل سماحةُ الشيخِ عبد العزيز بن باز رحمه الله عن أقل مدة يُخْتَمُ فيها القرآنُ؟ فأجاب: ليس فيه حدٌّ محدود، إلا أنَّ الأفضلَ أنْ لا يَقرأَهُ في أقلَّ مِن ثلاث، كما في حديث عبد الله بن عمرو: «**لاَ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ**»[5]. فالأفضلُ أنْ يَتحرَّى في قراءته الخشوعَ والترتيلَ والتدبرَ، وليس المقصود العجلة، بل المقصود أن يستفيد، وينبغي أن يكثر القراءة في رمضان، كما فعَلَ السلفُ رضي الله عنهم، ولكن مع التدبر والتعقل، فإذا ختَمَ في كلِّ ثلاث فحَسَن، وبعضُ السلف قال: إنه يُستثنَى مْن ذلك أوقاتُ الفضائل، وأنه لا بأس أن يختمَ كُلَّ ليلةٍ أو في كل يوم، كما ذكروا هذا عن الشافعيِّ وعن غيره، ولكنَّ ظاهرَ السُّنَّة أنه لا فرْقَ بين رمضان وغيره، وأنه ينبغي له أن لا يعجل وأنْ يطمئنَ في قراءته، وأنْ يرتلَ كما أمر النبيُّ - عليه الصلاةُ والسلامُ- عبدَ الله بنَ عمرو رضي الله عنهما فقال: «**اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ**»[6] هذا آخر ما أمره به، وقال: «**لاَ يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلاَثٍ**»، ولم يقل إلاَّ في رمضان، فحَمْلُ

---

(١) «الهَذْرَمَةُ:السُّرعةُ في الكلام والمشي. ويُقال للتَّخْليط: هَذْرَمَةٌ»«النهاية في غريب الحديث»(ص:١٠٠٥).

(٢) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٥٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٤٠٧).

(٤) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٥٨).

(٥) سبق تخريجه، (ص:٣٢).

(٦) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، رقم (٥٠٥٤)، ومسلم في الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق وبيان تفضيل صوم يوم وإفطار يوم، رقم (١١٥٩).

بعضِ السلف هذا على غير رمضان محلُّ نظر، والأقربُ - والله أعلم- أنَّ المشروعَ للمؤمن أنْ يعتنيَ بالقرآن، ويجتهدَ في إحسانِ قراءته، وتدبرِ القرآن، والعنايةِ بالمعاني، ولا يعجلُ، والأفضلُ أن لا يختمَ في أقل مِن ثلاث، هذا هو الذي ينبغي حسب ما جاءت به السُّنَّة، ولو في رمضان.(١)

(١) «مجموع فتاوى ومقالات متنوعة» للشيخ عبد العزيز بن باز (١١/ ٣٥٠-٣٥١).

الوسيلة الرابعة: «ترديدُ الآيات»

وترديدُ الآياتِ مِن أعظمِ ما يُعينُ على تدبر القرآن؛ ليرسخَ معناها، وتُؤتيَ ثمارَها، فعن أبي ذرٍ رضي الله عنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ يُرَدِّدُهَا، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة:١١٨]، رواه أحمد، وابنُ ماجه، وحسَّنه الألباني(١).

قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: «فلو عَلِمَ الناسُ ما في قراءة القرآن بالتَّدبرِ لاشتغلوا بها عن كلِّ ما سواها، فإذا قرأه بتفكرٍ حتى مرَّ بآيةٍ هو محتاجٌ إليها في شفاءِ قلبِه، كرَّرها ولو مئةَ مرة، ولو ليلةً، فقراءةُ آية بتفكرٍ وتفهُّم خيرٌ مِن قراءةِ ختمةٍ بغيرِ تدبرٍ وتَفهُّمٍ، وأنفعُ للقلب وأدْعى إلى حصولِ الإيمان وذَوْقِ حلاوةِ القرآن»(٢).

وقال الموفَّق ابنُ قدامة رحمه الله: «وإن لم يحصل التدبُّر إلا بتَرْدَاد الآية، فليردِّدْها»(٣).

وقال بشرُ بنُ السَّرِيِّ(٤) رحمه الله: «إنما الآيةُ مثلُ التمرةِ، كلما مضغتَها استخرجتَ حلاوتَها»(٥).

---

(١) رواه أحمد (٣٥/ ٤٢٦) رقم (٢١٥٣٨)، وابن ماجه، واللفظ له، في إقامة الصلاة، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، رقم (١٣٥٠).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٥).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص:٦٨).

(٤) بشرُ بنُ السَّرِيِّ: «هو الواعظ الزاهد العابد الإمام أبو عمرو البصري، نزيل مكة، سمع حماد بن سلمة، وسفيان الثوري، ومالكا، وطائفة، توفي سنة خمس وتسعين ومئة»، ينظر: «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣٣٢-٣٣٣).

(٥) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٦٦٣).

ولهذا بات جماعاتٌ من السلف يتلون آيةً واحدةً يتدبرونها، ويرددونها إلى الصباح، وكان الضَّحَّاكُ إذا تلا قولَه تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦]، يرددها إلى السَّحَر[١].

وعن تميم الداريِّ رضي الله عنه أنه كرَّر هذه الآيةَ، حتى أصبح: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:٢١][٢].

قال الإمامُ النووي رحمه الله: «وقد باتَ جماعاتٌ مِن السَّلَفِ يتلونَ آيةً واحدةً يتدبَّرونَها ويُردِّدُونها إلى الصَّباحِ، وقد صُعِقَ جماعاتٌ مِن السَّلَفِ عند القراءةِ، وماتَ جماعاتٌ منهم حالَ القِراءَةِ»[٣].

قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: «كانت عادةُ السلفِ يردِّد أحدُهم الآيةَ إلى الصباح»[٤].

---

(١) ينظر: «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٨٥).

(٢) رواه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٩٤)، (ص:٧١)، والطبراني في «الكبير» رقم (١٢٥٠) (٢/ ٥٠).

(٣) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٨١).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٥).

الوسيلة الخامسة: «قيامُ الليل»

ومما يُعينُ على تدبُّرِ القرآن: «قيامُ الليل»، فإنَّ اللهَ -تعالى- قال لنبيِّه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل:١-٦]، قال العلامةُ السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات: «فإنَّ ترتيلَ القرآن به يحصلُ التَّدبرُ والتفكرُ، وتحريكُ القلوبِ به، والتعبدُ بآياته، والتهيؤ والاستعدادُ التامُّ له، فإنه قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أي نُوحِي إليك هذا القرآنَ الثقيلَ، أي العظيمةُ معانيه، الجليلةُ أوصافُه، وما كان بهذا الوصفِ حقيقٌ أنْ يُتهيأَ له ويُرتَّلَ ويُتفكَّرَ فيما يشتمل عليه، ثم ذَكَرَ الحكمةَ في أمرِه بقيامِ الليلِ، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ أي: الصلاةُ فيه بعد النومِ، ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي أقربُ إلى حصولِ مقصودِ القرآنِ، يَتواطأُ عليه القلبُ واللسانُ، وتَقِلُّ الشواغلُ، ويَفهمُ ما يقول، ويستقيمُ له أمرُه، وهذا بخلافِ النهارِ، فإنه لا يحصلُ به هذه المقاصد»[1].

وقد امتثلَ النبيُّ ﷺ أمْرَ ربِّه فكان كما وصفَه الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بنُ رواحة رضي الله عنه:

وفِينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلُو كِتَابَهُ ❊ إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ❊ بِهِ مُوقِنَاتٌ أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ ❊ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ[2]

ولهذا كان جبريل - عليه السَّلام- يُدارِسُ النبيَّ ﷺ القرآنَ كلَّ ليلةٍ من ليالي رمضان، قال الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله عن هذه المُدارسةِ المباركةِ: «المقصودُ

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤/ ١٨٩٨).
(٢) رواه البخاري في التهجد، باب فضل مَن تعار من الليل فصلَّى، رقم (١١٥٥).

مِن التلاوةِ الحضورُ والفهمُ؛ لأنَّ الليلَ مظِنَّةُ ذلك لما في النهارِ مِن الشواغلِ والعوارضِ الدنيويةِ والدينيةِ»[1].

وقال عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «يَنْبَغِي لِحَامِلِ الْقُرْآنِ أَنْ يُعْرَفَ بِلَيْلِهِ إِذَا النَّاسُ نَائِمُونَ، وَبِنَهَارِهِ إِذَا النَّاسُ مُفْطِرُونَ، وَبِحُزْنِهِ إِذَا النَّاسُ يَفْرَحُونَ، وَبِبُكَائِهِ إِذَا النَّاسُ يَضْحَكُونَ، وَبِصَمْتِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْلِطُونَ، وَبِخُشُوعِهِ إِذَا النَّاسُ يَخْتَالُونَ»[2].

قال الإمامُ النووي رحمه الله: «ينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءةِ القرآن في الليل أكثر، وفي صلاةِ الليل أكثر، قال الله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ – ١١٤].

وثبَت في الصحيحين عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ الله**[3] **لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**»، قال سالِمٌ: «فكان عبدُ الله بعْد ذلك لا ينامُ مِن اللَّيلِ إلا قليلا»[4].

وفي الحديث الآخر مِن الصحيح أنه ﷺ قال: «**يَا عَبْدَ الله**[5]**، لاَ تَكُنْ مِثْلَ فُلاَنٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ**»[6].

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٥٧).

(٢) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٦٥٩٥) (١٢/ ٤٣٦).

(٣) يعني: عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: رواه البخاري في التهجد، باب فضل قيام الليل، رقم (١١٢٢)- ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، رقم (٢٤٧٩).

(٥) يعني: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٦) حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: رواه البخاري في التهجد، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، رقم (١١٥٢).

وروى الطَّبَرَانِيُّ وغيرُه عن سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «شَرَفُ المؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ»[1].

والأحاديثُ والآثارُ في هذا كثيرةٌ.

وقد جاء عن أبي الأحوصِ الـجُشَمِيِّ قال: إنْ كان الرجلُ ليَطْرُقُ الفُسطاطَ[2] طُروقًا، أي: يأتيه ليلًا، فيَسْمَعُ لأهلِه دَوِيًّا كدويِّ النحلِ. قال: فما بالُ هؤلاء يَأْمَنونَ مَا كان أولئِكَ يخافون؟[3]

وعن إبراهيمَ النَّخَعِيِّ قال: كان يُقال: اقرؤوا مِن الليل ولو حَلْبَ شَاةٍ[4].

وعن يزيد الرَّقَاشي قال: إذا أنا نِمتُ ثم استيقظتُ، ثم نِمتُ، فلا نامتْ عينَايَ[5].

قال الإمامُ النووي رحمه الله: «وإنما رُجِّحَتْ صلاةُ الليلِ وقراءتُه لكونِها أجمعَ للقلبِ، وأبعدَ عن الشاغلاتِ والـمُلهياتِ والتَّصرُّفِ في الحاجاتِ، وأصونَ عن الرِّياءِ وغيرِه مِن الـمُحْبِطَاتِ مع ما جاء الشرعُ به مِن إيجادِ الخيراتِ في الليلِ، فإنَّ الإسراءَ برسولِ الله ﷺ كان ليلًا، وحديثُ «**يَنْزِلُ رَبُّكُم كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَمْضِي شَطْرُ اللَّيْلِ فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ...**»[6] الحديث»[7].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/ ٣٠٦) رقم (٤٢٧٨)، والحاكم في «المستدرك» رقم (٧٩٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٣/ ١٢٥-١٢٦) رقم (١٠٠٥٨).

(٢) الفسطاط: مدينة بناها عمرو بن العاص، وجعلها معسكرا للعرب الذين فتحوا مصر، وبني فيها جامعه – جامع عمرو بن العاص –، وهي اليوم مدينة مصر القديمة التي تعتبر بعض أحياء القاهرة.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٣٠١) رقم (٣٥٩٣٩)، ووكيع في «الزهد» (ص:٣٨٩) رقم(١٥٢)، وابن المبارك في «الزهد» (ص:٧٢) رقم (٩٨).

(٤) «حَلْبَ شَاةٍ: أي: وقت حَلَب شاة»، «النهاية في غريب الحديث»، (ص:٢٢٤).

(٥) رواه أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري- بسنده- في «المجالسة وجواهر العلم» ، (رقم: ١٥٤).

(٦) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري في التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١١٤٥)، ورواه مسلم في صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، رقم (٧٥٨).

(٧) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٦٣).

* وإذا قام حاملُ القرآنِ بحقه شَفَعَ له؛ فإنَّ القرآنَ شافعٌ مُشفَّع، قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**الصِّيَامُ وَالقُرْآنُ يَشْفعَانِ لِلعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ**»، رواه أحمد، والحاكم وصحَّحه، وافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني[1].

ولهذا قال معاذُ بن جبل رضي الله عنه حين حضرتْه الوفاةُ: «اللهم إني قد كنتُ أخافُك فأنا اليومَ أرجوك، اللهم إنك تعلمُ أنِّي لم أكن أحبُّ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لِـجرْي الأنهارِ ولا لِغرْسِ الأشجارِ، ولكن لِظمأِ الهواجرِ ومكابدةِ الساعاتِ ومزاحمةِ العلماءِ بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْرِ»[2].

(1) حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: رواه أحمد (١١/ ١٩٩) رقم (٦٦٢٦)، والحاكم في «المستدرك» رقم (٢٠٣٦).

(2) رواه أحمد في «الزهد» (ص:١٤٨) رقم (١٠١١)، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٣٩).

الوسيلة السادسة «سماعُ القرآن مِن الآخرين»

ومما يعينُ على التَّدبر: سماعُ القرآن مِن الآخرين، فعن عبدِ الله بنِ مسعودٍ قال: قال لي النبيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلتُ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النِّسَاءِ حتى بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]؛ قَالَ: «أَمْسِكْ»، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ، رواه الشيخان[1].

قال ابنُ بطَّال: «معنى استماعِه القرآنَ مِن غيره -والله أعلم- ليكون عَرضُ القرآنِ سُنَّةً، ويحتمل أن يكونَ كي يتدبرَه ويفهمَه، وذلك أنَّ المستمعَ أقوى على التَّدبُّرِ، ونفسُه أخلَى وأنشَطُ مِن نَفْسِ القارئ؛ لأنه فى شُغُلٍ بالقراءةِ وأحكَامِها»[2].

قال الإمامُ النووي: «في حديثِ ابن مسعود هذا فوائد منها: استحبابُ استماعِ القراءةِ والإصغاءِ لها والبكاءِ عندها وتدبرِها، واستحبابُ طلبِ القراءة مِن غيره ليستمع له، وهو أبلغُ في التفهُّمِ والتدبرِ مِن قراءته بنفسه، وفيه تواضعُ أهلِ العِلمِ والفضلِ ولو مع أتباعهم»[3].

قال العلامة الألوسي: «فإذا كان هذا الشاهدُ تفيض عيناه لهوْل هذه المقالةِ وعِظم تلك الحالة، فماذا لعَمري يصنع المشهودُ عليه، وكأنه بالقيامة وقد أناختْ لَديه؟!»[4].

---

(١) رواه البخاري في التفسير، باب: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، رقم (٤٥٨٢)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظ للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، رقم (٨٠٠).

(٢) «شرح صحيح البخاري» (١٠/ ٢٧٧-٢٧٨).

(٣) «شرح مسلم» (٦/ ٨٨).

(٤) «روح المعاني» (٣/ ٤٠٧).

وكان أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه - وهو جالسٌ في المجلس-: «يَا أَبَا مُوسَى، ذَكِّرنَا ربَّنا؛ فيقرأ عنده أبو موسى» رواه ابنُ حبان[1] وغيرُه.

وربما قرأ النبيُّ ﷺ بنفسه على خواصِّ أصحابه مِـمَّن كان ماهرًا بالقرآن تخصيصًا وتشريعًا كما حدث ذلك لسيدِ القراء أُبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه - أَوَّلِ مَن كتبَ الوحي لرسول الله ﷺ -، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١]»، قَالَ: وَسَمَّانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَبَكَى[2]، متفق عليه.

قال الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله: «بكى إمَّا فرحًا وسرورًا بذلك، وإمّا خشوعًا وخوفًا مِن التقصير في شُكر تلك النعمة، وفي روايةٍ للطَّبرانيِّ مِن وجهٍ آخرَ عن أُبيِّ بن كعب قال: «نَعَمْ، بِاسْمِكَ وَنَسَبِكَ فِي الملأِ الأَعْلَى»[3]، قال القرطبي: تعجّب أُبيٌّ مِن ذلك لأنَّ تسميةَ الله له ونصَّه عليه ليقرأ عليه النبيُّ ﷺ تشريفٌ عظيمٌ؛ فلذلك بكى، إما فرحًا وإما خشوعًا.

قال أبو عُبيد: المرادُ بالعَرْضِ على أُبيّ ليتعلمَ أُبيٌّ منه القراءةَ، ويتثبتَ فيها، وليكونَ عرْضُ القرآنِ سُنةً، وللتنبيه على فضيلة أُبيّ بنِ كعب وتقدُّمِه في حفظ القرآن، وليس المرادُ أن يستذكرَ منه النبيُّ ﷺ شيئًا بذلك العرْض. ويؤخذ مِن

---

(١) سبق تخريجه (ص:٨١).

(٢) رواه البخاري في المناقب، في مناقب أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، رقم (٣٨٠٩)- ورواه مسلم في صلاة المسافرين، في استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه، رقم (٧٩٩).
وفي لفظٍ للبخاري، رقم (٤٩٦٠): قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُبَيٍّ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ»، قَالَ أُبَيٌّ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «اللهُ سَمَّاكَ لِي»؛ فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي.

(٣) «المعجم الكبير» (١/ ٢٠٠) رقم (٥٣٩).

هذا الحديث: مشروعيةُ التواضعِ في أخْذِ الإنسانِ العلمَ مِن أهلِه وإنْ كان دونه»[1].

وقال الإمامُ النووي رحمه الله:«وفي الحديث فوائد كثيرة منها: المنْقبةُ الشريفةُ لأُبيٍّ بقراءة النبي ﷺ عليه، ولا يُعلَمُ أحدٌ مِن الناس شاركَه في هذا، ومنها: منقبة أخرى له بِذكْر الله تعالى له ونصِّه عليه في هذه المنزلةِ الرفيعةِ»[2].

وقد أوصى النبيُّ ﷺ بأخْذِ القرآن عن جماعةٍ مِن أصحابه مِنهم أُبيٌّ رضي الله عنه، ففي الحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ: «**خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ، مِنْ: عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ**»[3].

---

(١) «فتح الباري» (٧ / ١٦١).

(٢) «شرح مسلم» (٦ / ٨٦).

(٣) رواه البخاري- واللفظ له- في المناقب، في مناقب أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، رقم (٣٨٠٨)- ورواه مسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، رقم (٢٤٦٤).

الوسيلة السابعة: «**الاجتماعُ لمدارسةِ القرآنِ**»

مِن أعظمِ الأسبابِ المعينةِ على التَّدبرِ الاجتماعُ لمدارسةِ القرآنِ؛ فإنَّ ذلك سببٌ لنزولِ السكينةِ، كما قال ﷺ: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ الله، يَتْلُونَ كِتَابَ الله، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الـمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»، رواه مسلم(١).

وكان جبريل يدارس النبي ﷺ في كل رمضان فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ»(٢).

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ السكينةَ والملائكة تنزلُ عند قراءة القرآن، وعلى هذا بوَّب الإمامُ البخاري رحمه الله في «صحيحه» بقوله: «باب نُزُولِ السَّكِينَةِ وَالمَلَائِكَةِ عِنْدَ قِرَاءَةِ القُرْآنِ»، ثمَّ أوْرد حديثَ أُسَيْدِ بنِ حُضَيْرٍ رضي الله عنه أنه قال: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ؛ فَسَكَتَ، فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ؛ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ؛ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا ابْنَ حُضَيْرٍ**»، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ الله أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ

---

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (٢٦٩٩).

(٢) رواه البخاري في بدء الوحي، رقم (٦)، ومسلم في الفضائل، باب كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح، رقم (٢٣٠٨).

رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «**وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟**»، قَالَ: لا، قَالَ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ**» رواه البخاري ومسلم[١]، وعند البزار: «كان أُسيدٌ بن حُضَير حسَنَ الصوتِ بالقرآنِ»[٢].

---

(١) رواه البخاري - واللفظ له- في فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، رقم (٥٠١٨)، ورواه مسلم في صلاة المسافرين، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، رقم (٧٩٦)، عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن أسيد بن حضير ﷺ.

(٢) «مسند البزار» (٨/ ١٧٨).

الوسيلة الثامنة: «العلم»

ومن أسباب تدبر القرآن: العلم، إذ كمالُ الإنسانِ بتكميلِ قُوَّتَي العلم والعمل، والصبرِ في هذا الطريق، قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: «فلما كان كمالُ الإنسانِ إنما هو بالعلمِ النافع والعملِ الصالح، وهما الهدى ودِين الحق، وبتكميلِهِ لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]، فأقسم سبحانه أنَّ كلَّ واحدٍ خاسر إلا مَن كمَّل قُوَّتَه العلميةَ بالإيمان، وقوتَه العمليةَ بالعمل الصالح، وكمَّل غيرَه بالتوصية بالحقِّ والصبرِ عليه، فالحقُّ هو الإيمان والعمل، ولا يتم إلا بالصبر عليه والتواصي به، كان حقيقًا بالإنسانِ أنْ يُنفقَ ساعاتِ عُمُرِه؛ بل أنفاسَه، فيما ينالُ به المطالبَ العاليةَ، ويَخلُصُ به مِن الخسرانِ المبينِ. وليس ذلك إلا بالإقبالِ على القرآن وتفهمِه وتدبرِه، واستخراجِ كنوزه وإثارةِ دفائنه، وصرفِ العناية إليه، والعكوفِ بالهمَّة عليه؛ فإنه الكفيلُ بمصالح العبادِ في المعاش والمعاد، والموصلُ لهم إلى سبيل الرشاد. فالحقيقةُ والطريقةُ والأذواقُ والمواجيدُ الصحيحةُ كلُّها لا تُقْتبَسُ إلا مِن مشكاتِهِ، ولا تُستثمر إلا مِن شجراتِه»[(١)].

قال الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله: «وَالنَّاسُ فِي العِلم طَبَقَاتٌ؛ مَوْقِعُهُمْ مِنْ العِلم بِقَدْرِ دَرَجَاتِهِمْ فِي العِلم بِهِ، فَحَقٌّ عَلَى طَلَبَةِ العِلم بُلُوغُ غَايَةِ جُهْدِهِمْ فِي الِاسْتِكْثَارِ مِنْ عِلمِهِ، وَالصَّبْرُ عَلَى كُلِّ عَارِضٍ دُونَ طَلَبِهِ، وَإِخْلَاصُ النِّيَّةِ للهِ فِي اسْتِدْرَاكِ عِلمِهِ نَصًّا وَاسْتِنْبَاطًا، وَالرَّغْبَةُ إِلَى اللهِ فِي العَوْنِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ لَا يُدْرَكُ خَيْرٌ إِلَّا بِعَوْنِهِ، فَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَ عِلمَ أَحْكَامِ اللهِ فِي كِتَابِهِ نَصًّا وَاسْتِدْلَالًا، وَوَفَّقَهُ اللهُ لِلقَوْلِ وَالعَمَلِ لِمَا عَلِمَ مِنْهُ، فَازَ بِالفَضِيلَةِ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَانْتَفَتْ عَنْهُ الرِّيَبُ وَنَوَّرَتْ فِي قَلبِهِ

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧١-١٧٢).

الحِكْمَةُ، وَاسْتَوْجَبَ فِي الدِّينِ مَوْضِعَ الإِمَامَةِ. فَنَسْأَلُ اللهَ الْمُبْتَدِئَ لَنَا بِنِعَمِهِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا، الْمُدِيمَ بِهَا عَلَيْنَا مَعَ تَقْصِيرِنَا فِي الإِتْيَانِ عَلَى مَا أَوْجَبَ مِنْ شُكْرِهِ لَهَا، الجَاعِلَنَا[١] فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَنْ يَرْزُقَنَا فَهْمًا فِي كِتَابِهِ»[٢].

ومِنْ أظهرِ ثمراتِ عِلمْ القلبِ «خشيةُ الربِّ» التي تورثُ الخشوعَ والبكاءَ؛ كما قالَ -جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال الإمامُ النوويُّ رحمه الله: «البكاءُ في حالِ القراءةِ هو صفةُ العارفين، وشعارُ عبادِ الله الصالحين، قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٩]»[٣].

وعن عبدِ الله بنِ عروة بن الزبير – رحمهما الله- قال: قلت لجدتي أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضي الله عنهما: كيف كانَ أصحابُ رسول الله ﷺ يفعلون إذا قُرِئ عليهم القرآنُ؟ قالت: كانوا كما نعتَهم اللهُ عز وجل تدمَعُ أعينُهم، وتقْشعِر جُلودُهم[٤].

وأخبر سبحانه عن حالِ مَن أنعم عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: إذا سمعوا كلامَ الله المتضمنَ حُجَجه ودلائلَه وبراهينَه، سجدوا لربهم خضوعًا واستكانةً، وحمدًا وشُكرًا على ما هُم فيه مِن النِّعَمِ العظيمةِ»[٥].

---

(١) مِن باب إضافةِ المعرفة إلى الـمُعَرَّف باللام، وهي جائزة عند بعضهم، ومنهم: الشافعي.
(٢) «أحكام القرآن» (ص:٣٠).
(٣) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٨٥).
(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٧/١١٦)، والقرطبي (١٨/٢٦٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣/٤١٦-٤١٧) رقم (١٩٠٠).
(٥) «تفسير ابن كثير» (٥/٢٤٢).

وكان عبدُ الأعلى التَّيميُّ رحمه الله يقول: «مَن أُوتي مِن العلم ما لا يُبكِّيه لخليقٌ ألا يكون أُوتِي علمًا ينفع؛ لأنَّ اللهَ تعالى نعتَ العلماءَ فقال: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩]»[١].

وهذا أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه لما اشتد المرضُ برسولِ الله ﷺ قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ»، قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ[٢].

وأما الفاروق رضي الله عنه فكان يُسْمَعُ نشيجُه مِن وراءِ الصُّفُوفِ، فعن عبد الله بن شدَّاد قال: سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ، يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:٨٦][٣].

وجاء في ترجمة محمدِ بنِ الـمُنْكَدِر رحمه الله أَنَّهُ بَيْنَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ قَائِمٌ يُصَلِّي، إِذِ اسْتَبْكَى، فَكَثُرَ بُكَاؤُهُ، حَتَّى فَزِعَ لَهُ أَهْلُه، وَسَأَلُوْهُ؟ فَاسْتَعجَمَ عَلَيْهِم، وَتَمَادَى فِي البُكَاءِ، فَأَرْسَلُوا إِلَى أَبِي حَازِمٍ، فَجَاءَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا الَّذِي أَبكَاكَ؟ قَالَ: مَرَّتْ بِي آيَةٌ. قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]، فَبَكَى أَبُو حَازِمٍ مَعَهُ، فَاشتَدَّ بُكَاؤُهُمَا.

وجاء في ترجمته – أيضا- أنهُ جَزِعَ عندَ الموتِ، فقِيلَ له: لِـمَ تـجزَع؟ قال: أخشَى آيةً مِن كِتابِ الله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧] أنا أخشَى أنْ يَبدوَ لِي مِن الله ما لمْ أكنْ أحتسب[٤].

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (١٢/ ٣٩١) رقم (٣٦٣٦٩).

(٢) حديث عائشة رضي الله عنها: رواه البخاري في الأذان، باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، رقم (٦٧٩).

(٣) رواه البخاري في الأذان، باب إذا بكى الإمام في الصلاة.

(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٥٥).

وفي «المستدرك» عن قيس بن أبي حازم قال: «كان عبدُ الله بن رَوَاحة ﷺ واضعًا رأسَه في حِجْر امرأتِه، فبكى، فبكتِ امرأتُه، فقال: ما يُبكِيكِ؟ فقالت: رأيتُك تبكِي فبكيتُ. قال: إنِّي ذَكرتُ قولَ الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فلا أدري أنجو منها أم لا؟»[1].

وعن الرَّبَاحِيِّ قال: شَرِبَ عبدُ الله بنُ عمرَ ماءً مبرّدًا فبكي فاشتدَ بكاؤه، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: ذكرتُ آيةً في كتابِ الله ﷻ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، فعرفتُ أنَّ أهلَ النار لا يشتهون شيئًا شهوتَهم الماءَ، وقد قال الله ﷻ: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠][2].

وقد حدثني أحدُ إخوانِنا[3] الأفاضلِ أنَّه زار فضيلةَ الشيخِ عبدَ الله بنَ محمد الخُليفي - إمامَ وخطيبَ المسجد الحرام، رحِمه اللهُ رحمةً واسعةً -، وكان صديقًا لوالده، قال: فوافق ذلك طعامَ الغداء، فعزمَ عليَّ الشيخُ - جزاه الله خيرًا- أنْ أُشاركَهم في طعامهم، ففعلْتُ، فما أنْ وضَعتُ يدي في المائدةِ حتى سألتُ الشيخَ عن معنى قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية [الحديد: ١٦]، فتمتم الشيخ على إِثْرِ ذلك، ثم بكى واشتد بكاؤه وعلا نشيجُه، وانصرفَ عن الأكل، منشغلا بما هو فيه، حتى إنَّني نِدمتُ على سؤالي إياه، وقلتُ في نفسي: ليتني سكتُّ- شفقةً على الشيخ، وكان بجواري زوجُ ابنته، فالتفتُّ إليه فبادرني أن دعْه دعْه، فتركناه على حالِه في البكاء، حتى إذا فرغنا من الطعام، قال

---

(١) «المستدرك» رقم (٨٧٨٦)، وأخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٠-١١).

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٦٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٣٣٨) رقم (٤٢٩٤)، وفي زيادات عبد الله بن الإمام أحمد في «الزهد»، (ص ١٥٦) رقم (١٠٥٥). والرَّبَاحِيُّ: هو عقيل بن شمير بن رباح ﷺ.

(٣) هو الأستاذ الفاضل الوجيه: عبد الله بن ماضي الربيعان - حفظه الله -، وكيلُ إمارة الطائف سابقًا، وهو معروف ببذل جاهه في الخير، وحرصه على نفع الناس، فجزاه الله خيرا.

الشيخُ: أين أُراه السائل عن الآية؟ فقلت: ها أنا ذا، أحسنَ الله إليك، فطفِق الشيخُ يُفسِّرُ الآيَةَ، ويستطردُ في هداياتها ودلالاتها، فقلتُ في نفسي بعد ذلك: حُقَّ له البكاء، وصدق اللهُ إذا يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨-٣٠].

وهذه القصةُ تُذكرُني بما جرى للصحابي الجليل عبدِ الرحمن بنِ عوف رضي الله عنه حين قُدِّمَ له الطعام، وكان يومئذٍ صائمًا، فتذكرَ آيةً في كتاب الله فبكى واشتد بكاؤه، ولنَدَع ابنَه يروي لنا ما حدث، ففي صحيح البخاري أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عوفٍ رضي الله عنه أُتِيَ بطعام، وكانَ صائمًا، فقالَ: قُتِلَ مُصعبُ بنُ عُميْرٍ وهُو خيرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُردةٍ: إنْ غُطِّيَ رأسُه بَدَتْ رِجلاهُ، وإنْ غُطِّيَ رِجلاهُ بَدَا رأسُه، وقُتِلَ حمزةُ وهوَ خيرٌ مِنِّي، ثمَّ بُسِطَ لنا مِنَ الدُّنيا ما بُسِطَ، أو قال: أُعْطِينا مِنَ الدُّنيا ما أُعْطِينا، وقد خشِينا أنْ تكونَ حسناتُنا عُجِّلَتْ لنا، ثمَّ جعلَ يَبْكِي حتَّى تركَ الطَّعامَ(١).

وفي رواية أخرى قال رضي الله عنه: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عُجِّلَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا فِي حَيَاتِنَا الدُّنْيَا(٢)، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي(٣). هكذا كانوا، والله المستعان!

أيها المبارك:

لماذا اقشعرت جلودُ أولئك الأخيار من آيات القرآن ثمَّ لانت، وفاضت عبراتُهم عند سماع القرآن، وسالت؟ إنَّه العلمُ بالله الذي أورث تلك الخشيةَ والإجلالَ للكبيرِ المتعال، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

---

(١) رواه البخاري في المغازي، باب غزوة أحد، رقم (٤٠٤٥).

(٢) وكأنَّه رضي الله عنه استشعر قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ الآية، [الأحقاف: ٢٠].

(٣) رواه البخاري في الجنائز، باب الكفن من جميع المال، رقم (١٢٧٤).

ولهذا ندَب اللهُ - تعالى- إلى تدبر القرآن الكريم؛ ليخرجَ العبدُ بذلك عن دائرةِ الجاهلين، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

فمَن لم يتأثر بالقرآن فهو جاهلٌ، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا۟ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «وكرّر ذِكْرَ الخرورِ للأذقانِ لاختلافِ السبب، فإنَّ الأولَ: لتعظيمِ الله -سبحانه- وتنزيهِه، والثاني: للبكاءِ بتأثيرِ مواعظِ القرآنِ في قلوبِهم ومزيدِ خشوعِهم، ولهذا قال: ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي: سماعُ القرآن، أو القرآنُ بسماعِهم له، ﴿خُشُوعًا﴾ أي: لينَ قلبٍ ورطوبةَ عينٍ».[1]

وقال الإمامُ القرطبي رحمه الله:«كانت حالُهم عند المواعظِ الفهمَ عن الله والبكاءَ خوفًا مِن الله. وكذلك وصَفَ اللهُ أحوالَ أهلِ المعرفة عند سماعِ ذِكرِه، وتلاوةِ كتابه، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة:٨٣]، فهذا وصفُ حالِهم وحكايةُ مقالِهم، ومن لم يكن كذلك، فليس على هديِهم، ولا على طريقتِهم؛ فمَن كان مستنًا فليستنَّ»[2].

---

(١) «فتح القدير» (٢/ ٦٣٥).
(٢) «تفسير القرطبي» (٩/ ٤٥٠).

الوسيلة التاسعة: «الرجوعُ إلى كتبِ التفاسير»

ومما يعينُ على تدبرِ كتابِ الله: الرجوعُ إلى كتبِ التفاسير، مع استشعارِ العبدِ أنَّه لا يُمكِن لأحدٍ أن يُحيطَ بمعاني كلامِ الرَّبِ - جلَّ وعلا -، فيظلُ مع ذلك مُمعنًا، مُتفكِّرًا، مُتدبِّرًا.

قال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيُّ[1] رحمه الله: «لو أُعطِيَ العبدُ بكل حرفٍ مِن القرآنِ ألفَ فهمٍ لم يبلغْ نهايةَ ما أودَعَه اللهُ في آيةٍ مِن كتابِه؛ لأنَّه كلامُ الله، وكلامُه صفتُه، وكما أنه ليس لله نهايةٌ، فكذلك لا نهايةَ لفهمِ كلامِه، وإنما يَفهمُ كُلٌّ مِقدارَ ما يفتحُ اللهُ عليه»[2].

وقال الإمامُ القرطبي رحمه الله: «وينبغي له أن يتعلمَ أحكامَ القرآنِ، فيفهمَ عن الله مرادَه، وما فرَضَ عليه، فينتفعَ بما يقرأ، ويعملَ بما يتلو، فما أقبحَ لحاملِ القرآنِ أنْ يتلُوَ فرائضَه وأحكامَه عن ظهرِ قلبٍ، وهو لا يَفهمُ ما يتلو، فكيف يعملُ بما لا يفهمُ معناه ؟! وما أقبحَ أنْ يُسألَ عن فقهِ ما يتلو ولا يدرِيه! فما مَثَلُ مَن هذه حالتُه إلا كمثل الحمار يحمِلُ أسفارًا»[3].

وَتَأَمَّلْ ما قاله الصحابيُّ الجليلُ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه لترى كيف بلَغ بهم الحرصُ على فهمِ مُرادِ الله تعالى مِن كلامِه، قال رضي الله عنه: «وَاللهِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ، إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلاَ أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ،

---

(١) سهل التُّسْتَرِيُّ: سهل بن عبد الله بن يونس، أبو محمد التستري، أحد أئمة الصوفية والزهد، وله مواعظ، لقي ذا النون المصري ومحمد بن سوار، مات في المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين، ينظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٣٣٠ - ٣٣٣)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ٦٦٥).

(٢) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٧).

(٣) «تفسير القرطبي» (١/ ٣٨).

إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ الله تُبَلِّغُهُ الإِبِلُ، لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ»، رواه البخاري ومسلم(١).

قال مجاهدٌ رحمه الله: «عرَضْتُ المصحفَ على ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ثلاثَ عَرَضَاتٍ، مِن فَاتِحَتِه إِلى خَاتِمَتِه، أُوْقِفُه عند كلِّ آيةٍ مِنه، وأسألُه عنها»(٢).

وكان شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله يقول: «ربما طالعتُ على الآية الواحدة نحوَ مائةِ تفسيرٍ، ثمَّ أسألُ اللهَ الفهْمَ؛ وأقولُ: يا مُعلِّمَ آدمَ وإبراهيمَ علِّمْني، وكنتُ أذهبُ إلى المساجدِ المهجورةِ ونحوِها، وأُمرِّغُ وجهي في الترابِ، وأسأل اللهَ تعالى وأقولُ: يا مُعلِّم إبراهيمَ فهِّمْنِي»(٣).

هكذا كانوا، والله المستعان.

---

(١) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، رقم (٥٠٠٢)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب مِن فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما، رقم (٢٤٦٣).

(٢) رواه الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١/ ٨٥).

(٣) «العقود الدرية» (ص:٤٢).

الوسيلة العاشرة: **«الاستعانةُ بكلام النبي ﷺ وبيانِه للقرآن»**

ومن أعظم أسباب التدبر: الاستعانةُ بكلام النبي ﷺ وبيانِه للقرآن؛ فإنه مُبيِّنٌ للقرآن الكريم، قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله: «السُّنةُ تُفسِّرُ القرآنَ وتدلُّ عليه وتُعبِّرُ عنه»[1].

و«لـمَّا نَزَلَتِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم﴾ [الأنعام:٨٢] **شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْـمُسْلِمِينَ؛** فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: **لَيْسَ ذَلِكَ، إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا مَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهْوَ يَعِظُهُ؟** ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»، رواه الشيخان[2].

وكان مِن دعاءِ الخليل إبراهيم ﷺ لهذه الأمة ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]، وقال سبحانه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١].

قال الإمامُ السيوطي رحمه الله: «قال العلماءُ: مَن أراد تفسيرَ الكتابِ العزيزِ طَلَبه أوَّلًا مِن القرآنِ، فما أُجْمِل مِنه في مكانٍ فقد فُسِّرَ في موضعٍ آخرَ، وما اخْتُصِر في مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخرَ ... فإنْ أعياه ذلك طَلَبه من السُّنَّةِ؛ فإنها شارِحةٌ للقرآنِ وموضِّحةٌ له، وقد قال الشافعيُّ - رضي الله عنه-: كلُّ ما حكَمَ به رسولُ الله فهو ممَّا فهِمَه مِن القرآنِ، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) «دقائق التفسير» (٣/ ٢٦).

(٢) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رواه البخاري في«صحيحه»، واللفظ له، في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾[لقمان:١٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، رقم (٣٤٢٩)، ورواه مسلم في الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، رقم (١٢٤).

﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:١٠٥]، وقال ﷺ: «أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[١] - يعني السُّنَّة».[٢]

ولهذا قال شيخُ الإسلام محمدُ بن عبد الوهاب رحمه الله: «ومِن أحسَنِ ما يفتح لك البابَ في فهْم الفاتحة، حديثُ أبي هريرة الذي في صحيح مسلم، قال: قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **يَقولُ الله تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ العَبْدُ:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **قَالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، **قَالَ اللهُ: أَثْنَى عَلَي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ:** ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، **قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ **قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ **قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**[٣].

فإذا تأمَّلَ العبدُ هذا، وعلِم أنها نصفان: نِصفٌ لله وهو أوَّلُها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ونِصفٌ للعبد دعاءٌ يدعو به لنفسه، وتَأَمَّلَ أنَّ الذي علَّمَه هذا هو اللهُ تعالى، وأمره أنْ يَدعُوَ به، ويُكَرِّرَه في كُلِّ رَكْعَةٍ، وأنه سبحانه مِن فضلِه وكرَمِه، ضَمِن إجابةَ هذا الدعاء، إذا دعاه بإخلاصٍ وحُضورِ قَلْبٍ، تبيَّن له ما أضاعَ أكثرُ الناسِ.

قَـد هَيَّئـوكَ لِأَمْـرٍ لَـوْ فَطِنْـتَ لَـه ❊❊ فَارْبَأ بنفسِكَ أنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَـلِ»[٤]

---

(١) حديث المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه: رواه أحمد (٢٨/ ٤١٠) رقم(١٧١٧٤)، واللفظ له، وأبو داود في لزوم السنة رقم: (٤٦٠٤)، وصحَّحه الألباني.

(٢) «الإتقان في علوم القرآن» (٦/ ٢٢٧٤).

(٣) رواه مسلم في الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم (٣٩٥).

(٤) «الدرر السَّنية في الأجوبة النجدية» (١٣/ ٦١).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فقد ثبتَ بهذا النَّصِّ أنَّ هذه السورةَ منقسمةٌ بين الله وبين عبده، وأنَّ هاتين الكلمتين مقتَسَمُ السورة، فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع ما قبله لله، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع ما بعده للعبدِ، وله ما سأل. ولهذا قال مَن قال مِن السَّلفِ: نصفُها ثناءٌ ونصفُها مسألةٌ، وكلٌّ واحدٍ مِن العبادةِ والاستعانةِ دعاءٌ»[1].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٤/٨).

الوسيلة الحادية عشرة: **«الإيمانُ بأنَّ القرآن كلامُ الله»**

وإنَّ من أعظمِ دواعي تدبرِ القرآنِ: الإيمانُ بأنَّه كلامُ الله، تكلَّم به حقًا، وأنزله على رسولِه وحيًا، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة:٧٧-٨٠]، قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: «دلَّت الآيةُ بإشارتها وإيمائها على أنه لا يُدرِكُ مَعَانِيَه، ولا يفهمُه إلا القلوبُ الطاهرةُ، وحَرامٌ على القلبِ الـمُتَلَوِّثِ بنجاسةِ البدعِ والمخالفاتِ أن ينالَ مَعَانِيَه، وأنْ يفهمَه كما ينبغي...، ولا ينالُ معَانِيَه إلا مَنْ لم يكن في قلْبِه حرجٌ مِنه بوجهٍ مِن الوجوه»[1].

وقد أورد الإمامُ البخاريُّ رحمه الله «في صحيحه» في معنى قوله تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة:٧٩]: «لَا يَجِدُ طَعْمَهُ وَنَفْعَهُ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِالقُرْآنِ، وَلاَ يَحْمِلُهُ بِحَقِّهِ إِلَّا المُوقِنُ»[2].

---

(١) «التبيان في أيمان القرآن» (ص:٣٤٠-٣٤١) مختصرا.

(٢) رواه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾ [آل عمران:٩٣].

الوسيلة الثانية عشرة: «شدةُ الإقبالِ على القرآن، وعدمُ التفاتِ القلبِ إلى غيرِه»

وأهمُ الـمُهِمَّاتِ وأعظمُ الدَّواعي إلى تدبُّرِ كلامِ الباري: شدةُ الإقبالِ على الله تعالى، وعدمُ التفاتِ القلبِ إلى غيرِه، فبذلك تتنورُ البصيرةُ، وتجتمعُ الهمةُ، فالقلبُ المشغولُ عن القرآن بغيرِه قلَّما يتأثرُ بالقرآنِ، وأنَّى يحصلُ له ذلك، وقلبُه في أوديةِ الدنيا، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]. قال سفيانُ الثوري رحمه الله: «لا يجتمعُ فهْمُ القرآنِ والاشتغالُ بالحطامِ في قلبِ مؤمنٍ أبدًا»(١).

قال الإمامُ النووي رحمه الله: «وإنما رجَحَتْ صلاةُ الليلِ وقراءتُه لكونِها أجمعَ للقلبِ وأبعدَ عن الشاغلاتِ والملهياتِ»(٢).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ(٣) خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**»(٤).

قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: «بيّن أنَّ الجوفَ يمتلئُ بالشِّعْرِ، فكذلك يمتلئ بالشُّبَهِ والشكوكِ والخيالاتِ، والتقديراتِ التي لا وجودَ لها، والعلوم التي لا تنفعُ، والمفَاكَهاتِ والـمُضْحِكاتِ والحكاياتِ، ونحوها. وإذا امتلأ القلبُ بذلك؛ جاءته حقائقُ القرآنِ، والعلمُ الذي به كمالُه وسعَادَتُه، فلم تجدْ فيه فراغًا لها ولا

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٣٤).
(٢) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص:٦٤).
(٣) «يَريه: - بفتح الياء وكسر الراء- مِن الوَرْي، وهو داءٌ يُفسد الجوفَ، ومعناه: قيحا يأكل جوفه ويفسده»، «شرح مسلم» للنووي (١٥/ ١٤).
(٤) رواه البخاري في الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشِّعر... ، رقم (٦١٥٥)، ورواه مسلم، واللفظ له، في أول كتاب الشعر، رقم (٢٢٥٧).

قَبولًا، فتعدَّتْه وجاوزتْه إلي مَحَلٍّ سواه، كما إذا بُذِلَتِ النصيحةُ لقلبٍ ملآنَ مِن ضدِها لا منفذَ لها فيه؛ فإنَّه لا يَقبلُها ولا تلِجُ فيه، لكنْ تمرُّ مجتازةً لاً مستوطنةً. ولذلك قيل:

نـزِّهْ فُـؤَادَكَ مِـن سِـوانَا تَلْقَنَـا ❊❊ فجنَابُنـا حِـلٌّ لِكُـلِّ مُنـزَّهِ»[1]

ولهذا قال شيخُ الإسلام رحمه الله مستشعرًا ما أفاض اللهُ على قلبه مِن الفتوحاتِ العظيمةِ والاستنباطاتِ البديعةِ، وذلك أثناء سَجْنه وخلْوتِه بربِّه وإقبالِه التَّامِّ على القرآن: «قد فَتَحَ اللهُ عليَّ في هذه المرةِ مِن معاني القرآن ومِن أصولِ العلم بأشياءَ كان كثيرٌ مِن العلماء يتمنونها، ونَدِمتُ على تضييعِ أكثرِ أوقاتي في غيرِ معَاني القرآن»[2].

ومهما استشعر القارئُ أنَّه مُخاطبٌ بهذا القرآنِ، أفلحَ كلَّ الفلاح، قال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله: «إذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآنِ، فاجمعْ قلبَكَ عند تلاوتِه وسماعِه، وألقِ سمعَكَ، واحضُرْ حضورَ مَن يخاطبُه به مَن تكلَّم به - سبحانه- منه إليه، فإنه خطابٌ مِنه لك على لسانِ رسولِه، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]، وذلك أنَّ تمامَ التأثيرِ لَمَّا كان موقوفًا على مُؤَثِّرٍ مُقتَضٍ، ومحلٍّ قابلٍ، وشرطٍ لحصولِ الأَثَرِ، وانتفاءِ المانعِ الذي يَمنعُ منه، تضمَّنت الآيةُ بيانَ ذلك كُلِّهِ بأوجزِ لفظٍ وأبينِه وأدَلِّه على المرادِ.

فإذا حصلَ الـمُؤَثِّرُ: وهو القرآنُ، والـمَحَلُّ القَابلُ: وهو القلبُ الحيُّ، وَوُجِدَ الشرطُ: وهو الإصغاءُ، وانتفى المانعُ: وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُه عن معنى الخطابِ، وانصرافُه عنه إلي شيءٍ آخرَ؛ حصلَ الأثرُ وهو الانتفاعُ والتَّذكرُ»[3].

---

(١) «الفوائد» (ص:٤٢).

(٢) «ذيل طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٤).

(٣) «الفوائد»، (ص:٣-٤) مختصرًا.

فكلُّ مَن قَصَدَ الهدايةَ والعِلمَ مِن القرآن، فإنَّ اللهَ يهديه، ويُرشدُه إلى ما ينفعُه، ويزيدُه نورًا وهدايةً وبصيرةً، فالهدَى كلُّ الهدَى في القرآن، قال الله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧].

وإذا بذلَ العبدُ في ذلك وُسعَه، فالرَّبُّ- جلَّ وعَلا- أكرمُ مِن عبدِه، فيفتحُ عليه مِن علومِه أمورًا ليست في حسابِه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، والذي أحيا الأرضَ بعد موتِها بماءِ المطرِ، قادرٌ على أنْ يُحْيِيَ القلوبَ الميتةَ بما أنزلَهُ مِنْ وَحْيِ السَّماءِ كما قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

الوسيلة الثالثة عشرة: «**العملُ بما علِم**»

ومن أسباب حصول التَّدبُّرِ: أنْ يكونَ القصْدُ مِن ذلك العملُ بما علِم؛ فإنَّ هذا هو المقصودُ الأعظمُ مِن تلاوةِ القرآن.

قال عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: «أُنزِلَ عليهم القرآنُ ليعملوا به فاتَّخَذُوا درْسَه عَملًا، إنَّ أحدَهم ليتلو القرآنَ مِن فاتحتِه إلى خَاتمتِه ما يُسقِطُ مِنه حَرفًا وقد أسقطَ العملَ به»[1].

وعن قتادةَ رحمه الله قال: «مَا جَالسَ القرآنَ أحدٌ فقامَ عنه إلّا بزيادةٍ أو نُقصَانٍ، ثمّ قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]»[2].

ويقول تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

قال الإمامُ البخاري: «قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨]، قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿فَٱتَّبِعْ﴾ اعْمَل بِه»[3].

وفي الصحيحين عن عبدِ الله بنِ عمر رضي الله عنهما عن رسولِ الله ﷺ قال: «**لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ**»[4]، قال الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله: «والمراد بالقيام به العمل به مطلقًا».[5]

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ٢٧٦).

(٢) سنن الدارمي، (٤/ ٢١٠٦)، رقم (٣٣٨٧)، وروى نحوه الإمام ابن جرير الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٢٦) عن الحسن رحمه الله.

(٣) «صحيح البخاري»، كتاب التفسير.

(٤) رواه البخاري في التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «رجل أتاه الله القرآن فهو يقوم به»، رقم (٧٥٢٩)، ومسلم، واللفظ له، في صلاة المسافرين، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، رقم (٨١٥).

(٥) «فتح الباري» (١/ ٢١٩).

وعن النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ[(١)] الكِلَابِيِّ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يُؤْتَى بِالقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ**»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**»، رواه مسلم[(٢)].

والإيمانُ بالقرآن يقتضي العملَ به وعدمَ مخالفتِه، قال أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: «إِنِّي لَا أَخْشَى أَنْ يُقَالَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا عُوَيْمِرُ، مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا جَهِلْتَ؟ وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ يُقَالَ لِي: مَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ»[(٣)].

قال الإمامُ القرطبي رحمه الله: «﴿وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد:٢]: لم يُخالِفوه في شيء، قاله سفيانُ الثَّورِيُّ، وقيل: صدَّقوا محمدًا ﷺ فيما جاء به»[(٤)].

وقد ذمَّ اللهُ تعالى مَن هجرَ العملَ بالقرآنِ، وجعلَ له مثلَ السَّوْءِ، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة:٥].

قال الإمامُ ابنُ القيمِ رحمه الله: «فقَاس مَن حَمَّله سبحانه كتابَه ليُؤمِنَ به ويتدبَّره ويعملَ به ويدعوَ إليه، ثمَّ خالفَ ذلك ولم يحملْه إلا على ظهرِ قلبٍ، فقراءتُه بغيرِ تدبرٍ ولا تفهُّمٍ ولا اتباعٍ له ولا تحكيمٍ له وعمَلٍ بموجَبه، كحمارٍ على ظهرِه زاملةُ أسفارٍ؛

---

(١) النواس بن سمعان الكلابي: هو النَّوَّاس- بتشديد الواو ثم مهملة - بن سِمْعان بن خالد بن عمر الكلابي، الأنصاري، وسَمعان بفتح السِّين وكسْرِها، له ولأبيه صُحبة، سكن الشام، ينظر: «شرح مسلم» للنووي (١٦/ ١١١)، و«تقريب التهذيب» (ص:١٠٠٩)

(٢) سبق تخريجه، ص (٣٣).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٧٧) رقم (١٦٤٦)، وبنحوه ابن المبارك في «الزهد» (ص: ٥٠٢) رقم (٣٢٦)، ومحمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (ص: ٨٤١) رقم (٨٤٩).

(٤) «تفسير القرطبي» (١٩/ ٢٤٠).

لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حمْلُها على ظهرِه ليس إلا، فحظُّه مِن كتابِ الله كحظِّ هذا الحمار مِن الكتب التي على ظهرِه، فهذا المثَلُ وإنْ كان قد ضُرِبَ لليهودِ فهو مُتناوِلٌ مِن حيثُ المعنى لِمَنْ حـمَلَ القرآنَ فترَكَ العملَ به، ولم يُؤدِ حقَّه، ولم يَرْعَه حقَّ رعايتِه»[1].

وقد ورَدَ مِن الوعيدِ ما يخلعُ القلوبَ في حقِّ مَن هجرَ العملَ بالقرآن، وذلك في الحديثِ الذي رواه الإمام البخاري عن سمرةَ بنِ جندب رضي الله عنه في رؤيا النبي ﷺ ، وفيه: «**فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفِهْرٍ، أَوْ صَخْرَةٍ، فَيَشْدَخُ بِهِ رَأْسَهُ**[2]**، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحَجَرُ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ، فَلاَ يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلتَئِمَ رَأْسُهُ، وَعَادَ رَأْسُهُ كَمَا هُوَ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ، قُلتُ: مَنْ هَذَا ؟ قَالاَ: انْطَلِقْ**»، ثمَّ قال ﷺ في تأويلِ المَلَكين لذلك، أنهما قالا: «**الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشْدَخُ رَأْسُهُ، فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللهُ القُرْآنَ، فَنَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ، وَلَمْ يَعْمَل فِيهِ بِالنَّهَارِ، يُفْعَلُ بِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**»[3].

وقال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٧]، «فشبَّه سبحانه مَن آتاه كتابَه وَعلَّمَه العلمَ الذي منعه غيرَه، فترَكَ العملَ به، واتبعَ هواه، وآثرَ سَخطَ الله على رضاه، ودُنياه على آخرتِه، والمخلوقَ على الخالقِ بالكلبِ الذي هو مِن أَخْبَثِ

---

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨٨).

(٢) «يشدخ رأسه: أي يكسر»، «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (المقدمة، ص:٢٠٩).

(٣) رواه البخاري في الجنائز، باب، رقم (١٣٨٦).

الحيوانات، وأوضَعِها قدْرًا، وأخسِّها نفسًا، وهمَّتُه لا تتعدى بطنَه، وأشدِّهَا شَرَهًا وحِرْصًا، ومِن حرصِه أنه لا يمشي إلا وخَطْمُه في الأرضِ يَتَشَمَّمُ ويَسْتَروِحُ حِرْصًا وشَرَهًا، ولا يزالُ يَشَمُّ دبرَه دون سائرِ أجزائه، وإذا رميتَ إليه بحجرٍ رجعَ إليه ليعضَّه مِن فَرطِ نهمته، وهو مِن أمْهَن الحيوانات، وأحملِها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيفُ القذرةُ الـمُرْوِحَةُ أحَبُّ إليه مِن اللَّحمِ الطَّرِيِّ، والعَذِرةُ أحَبُّ إليه مِن الحلوى، وإذا ظفَر بميتةٍ تكْفِي مائةَ كلبٍ لم يَدَعْ كلبًا واحدًا يتناول معه منها شيئا إلا هرَّ عليه وقهرَه؛ لحرصِه وبُخلِه وشرَهِه، ومِن عجيبِ أمْرِه وحِرْصِه أنه إذا رأى ذا هَيئةٍ رَثةٍ وثيابٍ دَنِيَّةٍ وحالٍ زريَّةٍ نبَحَه وحَمَل عليه، كأنه يتصور مشاركتَه له ومنازعتَه في قُوتِه، وإذا رأى ذا هيئةٍ حسنةٍ وثِيابٍ جميلةٍ ورياسةٍ، وَضَعَ له خَطْمَه بالأرض، وخَضَعَ له، ولم يَرْفَعْ إليه رأسَه»[1].

---

[1] «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٨٩-٢٩٠).

الوسيلة الرابعة عشرة: «التَّدرج في التدبر»

ومما يُعِينُ على تدبرِ القرآن أنْ يكون ذلك بطريقة «التدرج»؛ فإنَّ البيوتَ تُؤتَى مِن أبوابِها، وقد أخبر اللهُ تعالى عن كتابِه الكريمِ أنَّ منْه آياتٍ محكماتٍ وأُخَرَ متشابهات، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧].

ولـمَّا كان المُفَصَّلُ مِن قبيلِ المحْكَم؛ فيُبدَأُ به أولاً، فمَن رامَ هذا العلمَ الذي هو أشرفُ العلومِ فلْيبدأْ بالمفصَّل، يدل لهذا قولُ عمرَ : «إنْ كانَ أحدٌ مِنكُم مُتعَلِّمًا، فلْيتعلَّم مِنَ المفصَّل فَإِنَّه أيْسَرُ»(١).

وقد بوَّب الإمامُ البخاري في «صحيحه» بقوله: «بابُ تعليم الصبيانِ القرآنَ»، ثم أوْردَ أثرَ سعيدِ بن جُبيرٍ قال: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ الْمُفَصَّلَ هُوَ الـمُحْكَمُ، قال: وقال ابْنُ عبَّاسٍ: تُوُفِّيَ رَسُولُ الله وَأَنَا ابْنُ عَشْرِ سِنِينَ، وَقَدْ قَرَأْتُ الْمُحْكَمَ»(٢).

فظاهر هذا أنَّ ابنَ عباسٍ بدأَ بالـمُفَصَّل في عهدِ رسول الله ، ومعلومٌ أنَّ البداءةَ بالمفَصَّل أيسرُ في الفهْمِ وأسْهلُ في الحِفظِ كذلك؛ كما قال عمر آنفًا، وقال ابنُ مسعود : «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامًا، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا، وَإِنَّ لُبَابَ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلُ»(٣).

والمفصَّلُ أوَّلُه من سورة إلى آخرِ القرآنِ على الصحيحِ مِن أقوالِ أهلِ العلم(٤).

---

(١) «مصنف عبد الرزاق» (٣/ ٣٨١) رقم (٦٠٣٠).

(٢) رواه البخاري في فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن، رقم (٥٠٣٥).

(٣) «سنن الدارمي» (٤/ ٢١٢٦) رقم (٣٤٢٠)، قال أبو محمد: اللُّبَابُ: الخَالِصُ.

(٤) ينظر: «فتح الباري» (٢/ ٣٣٥)، و«شرح مسلم» للنووي (٦/ ١٠٧).

الوسيلة الخامسة عشرة: «التَّخلي عن موانعِ الفهمِ مِن الذنوبِ والمعاصي»

ومِن أعظمِ ما يعينُ على تدبر كتابِ الله: التَّخلي عن موانعِ الفهمِ مِن الذنوبِ والمعاصي؛ فإنَّ ذلك حجابٌ كثيفٌ دون تدبُّرِ القرآنِ، وفهْمِ معانيه، فاحفظْ فؤادَكَ عنِ الحرامِ، وجَوارِحَكَ عن الآثام؛ فإنَّ ذلك يُعطِّلُها عن الانتفاعِ بالقرآن؛ فإنَّ الذنوبَ إذا كثرت أظلمَ القلبُ، وانطفأَ نورُه، وعَلَاه الرَّانُ، قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: «فالمعاني التي هي باطنُ القرآن لا يمسُّها إلا القلوبُ المطهَّرةُ، وأما القلوبُ المنَجَّسَةُ لا تمسُّ حقائقَه، فهذا معنىً صحيح، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]. قال بعضُ السَّلَفِ: أَمنَعُ قلوبَهم فهْمَ القرآن.

وقال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَه، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]»[1]، فالذنوب تَرِيْنُ على القلوبِ حتى تمنعَها فهْمَ القرآن»[2] ا.هـ.

ومما يُنسَب إلى الإمامِ الشَّافِعي رَحِمَهُ اللهُ شِعرًا:

شَكَوْتُ إلى وكيعِ سُوءَ حِفظِي ** فأرشَدَنِي إلى تَرْكِ المعَاصِي
وأخْبَرَنِي بأنَّ العِلْمَ نُورٌ ** ونُورُ الله لا يُهْدَى لِعَاصِي[3]

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه الإمام أحمد في «مسنده» (١٣/ ٣٣٣-٣٣٤) رقم (٧٩٥٢)، والترمذي في «سننه» رقم (٣٣٣٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن ماجه في «سننه» رقم (٤٢٤٤)، وحسَّنه الألباني.

(٢) «جامع المسائل» (٤/ ٦٥-٦٦).

(٣) «ديوان الإمام الشافعي» (ص:٧٠).

وقال الإمامُ ابنُ القيم رحمه الله معدِّدا آثارَ الذنوبِ والمعاصي، ومنها «حرمان العلم»: «فإنَّ العلمَ نورٌ يقذفُه اللهُ في القلبِ، والمعصيةُ تُطفئ ذلك النورَ.

ولما جلس الشافعيُّ بين يدي مالكٍ وقرأَ عليه، أعجبَه ما رأى مِن وُفُورِ فطنَتِه، وتوقُّدِ ذكائِه، وكمالِ فهْمِه، فقال: إني أرى اللهَ قد ألقى على قلبِك نورًا، فلا تُطْفِئْهُ بظُلمةِ المعصية»[1].

وقال: «ومنها [أي:آثار الذنوب]:حرمانُ الطاعة، فلو لم يكن للذنْبِ عقوبةٌ إلا أنَّه يَصدُّ عن طاعةٍ تكون بدَلَه، ويقطعُ طريقَ طاعةٍ أخرى، فينقطعُ عليه طريقُ ثالثةٍ، ثم رابعةٍ، وهلمّ جرّا، فينقطعُ عليه بالذنبِ طاعاتٌ كثيرةٌ، كلُّ واحدةٍ منها خيرٌ له مِن الدنيا وما عليها، وهذا كرَجُلٍ أكلَ أكلةً أوجبتْ له مرْضةً طويلةً منعتْه مِن عدةِ أكَلاتٍ أطيبَ منها، فاللهُ المستعان»[2].

فالذنوبُ أقفالٌ تحُولُ بين العبدِ وبين فهْمِ القرآن، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤]؛ فليُكثرِ العبدُ مِن الاستغفارِ والتوبةِ إلى العزيزِ الغفَّارِ، فعند ذلك يُرزقُ عِلمًا لدُنِّيًا، وفتحًا ربَّانيًا، وقد كان شيخُ الإسلام ابنُ تيمية يُكثِر مِن الاستغفارِ إذا أشكلتْ عليه المسألة، قال رحمه الله: «إنه ليقفُ خاطري في المسألةِ، والشيءِ أو الحالةِ التي تُشْكِلُ عليَّ، فأستغفرُ اللهَ تعالى ألفَ مرةٍ أو أكثرَ أو أقلَّ، حتى ينشرحَ الصدرُ، ويَنْحَلَّ إشْكالُ ما أشْكَل»[3].

رحِمَه اللهُ رحمةً واسعة، ووفقنا لِمَا وفَّقَ إليه أولياءَه، ورزقنا توبةً نصوحًا مِن الذنوب التي حالت بيننا وبين كثيرٍ مِن التوفيق لِـما يُحِبُّ ويرضى.

---

(١) «الداء والدواء»، المعروف بـ «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، (ص:١٣٢).

(٢) «المصدر السابق» (ص:١٣٦).

(٣) «العقود الدرية» (ص:٢١).

وقد شرَط اللهُ تعالى الإنابةَ في الفهمِ والتَّذَكُّرِ، فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر:١٣]، وقال جلَّ وعلا: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق:٨].

الوسيلة السادسة عشرة: « قراءةُ القرآن بروحِ الفرح والاستبشار »

ومما يُعِينُ على تدبرِ القرآنِ: قراءتُه بروحِ الفرح والاستبشار، فمَن رَامَ فهْمَ القرآن؛ فليقرأْهُ قراءةَ فَرِحٍ به مُستَبْشِرٍ؛ فإنَّ ذلك مِن أعظم دواعي التدبر، قال تعالى في وصْفِ عبادِه المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة:١٢٤]

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٧-٥٨]. قال ابنُ أبي حَاتِم – رحمه الله- في تفسير هذه الآية: «وذُكِر عن بَقيَّة – يعني ابن الوليد- عن صفْوَانَ بنِ عمروٍ، سمعتُ أَيْفَعَ بنَ عبدٍ الكَلَاعِيَّ[1] يقولُ: لما قَدِمَ خَرَاجُ العراقِ إلى عُمَرَ رضي الله عنه، خرج عُمَرُ ومَولىً له، فجعلَ عمرُ يَعُدُّ الإبلَ، فإذا هي أكثر مِن ذلك، فجعلَ عمرُ يقولُ: الحمدُ لله تعالى، ويقولُ مولاه: هذا والله مِن فضلِ الله ورحمتِهِ. فقال عمرُ: كذبتَ، ليس هذا هو الذي يقول اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وهذا مما يجمعون»[2].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨]، «قال أحمد بن الحواري: إني لأقرأُ القرآنَ وأنظرُ في آية آية، فيَحِيرُ عقلي بها، وأعْجبُ من حُفَّاظِ القرآن كيف يَهْنِيهم النَّومُ ويَسَعُهم أن يَشتغِلوا بشيء مِن الدنيا وهُم يتْلُونَ كَلامَ الله؟! أمَا إنَّهم لو فَهِمُوا ما يتْلُون وعَرَفُوا حَقَّه وتلَذَّذوا به واستَحْلَوا المناجاةَ به؛ لذَهَبَ عنهم النَّومُ فَرَحًا بما قد رُزِقوا. وأنشد ذو النُّونِ المصري:

---

(١) أَيْفَعَ بنَ عبدٍ الكَلَاعِيُّ: تابعي صغير، توفي سنة ستٍ ومئة. «الإصابة في تمييز الصحابة»، (١/ ٤٩١).
(٢) «تفسير ابن أبي حاتم»، (٦/ ١٩٦٠).

مَنَعَ القُرَانُ بِوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ** مُقَلَ العُيُونِ بِلَيْلِهَا لا تَهْجَعُ
فَهِمُوا عَنِ المَلِكِ الجَلِيلِ كَلَامَهُ ** فَهْمًا تَذِلُّ لَه الرِّقَابُ و تَخْضَعُ»[1]

قال بعضُ السَّلف[2]: «أهلُ الليلِ في ليْلِهم ألذُّ مِن أهلِ اللهو في لهْوِهم، ولولا الليلُ مَا أحْببتُ البَقاءَ في الدُّنيا»[3].

وقال آخر: «مساكينُ أهلُ الدُّنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها. قالوا: وما أطيبَ ما فيها؟ قال: محبةُ الله، والأنسُ به، والشوقُ إلى لقائه، والإقبالُ عليه، والإعراضُ عما سواه»[4].

ولهذا لمّا عرفوا قدْرَ ما رُزقوا وحفظوا، أشفقوا أن يُسْلَبوه، وقد كان مِن دعاء أبي الحَلَالِ العَتكِيِّ[5] – أحدِ أئمةِ السَّلفِ وعُبَّادهم-:«اللهم لا تسْلُبني القرآنَ»[6].

فمَن أُوتِي القرآنَ فقد أُوتي أعظمَ ما يتنافسُ فيه المتنافسون، وأجلَّ ما يفرحُ به العارفون، ولهذا قال اللهُ مُمتنًا على عبدِه ورسولِه محمدٍ ﷺ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٧ – ٨٨].

---

(١) «لطائف المعارف»، (ص:٤٠٤).
(٢) هو أبو سليمان الداراني رحمه الله.
(٣) «لطائف المعارف»، (ص: ١١٧).
(٤) ذكره الإمام ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ١١٦٧)، و«الوابل الصيب» (ص١١٠)، وغيرهما. ونقله أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٦٧) عن ابن المبارك بلفظ «أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها، قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله عز وجل»، وأخرج أبو نعيم نحوه عن مالك بن دينار «الحلية» (٢/ ٣٥٨).
(٥) أبو الحلالِ العَتكِيُّ: هو زرارة بن ربيعة رحمه الله، وهو شريفٌ مِن أشراف الأزْد يجمع شرفًا وصلاحًا، سمع من عثمان بن عفان رضي الله عنه، مات عن مائة وعشرين سنة. ينظر:«صفة الصفوة»(٢/ ٦٠٩)- وفي«الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٥٧٢): اسمه ربيعة بن زرارة، أدرك الجاهلية، ثم نزل البصرة.
(٦) «صفة الصفوة» (٢/ ٦٠٩)، و«الإصابة في تمييز الصحابة» (٣/ ٥٧٢).

الوسيلة السابعة عشرة: «معرفةُ أسباب النزول»

ومِن أهم العواملِ الموصلةِ إلى تدبرِ كتَابِ الله -جلَّ جلالُه- معرفةُ أسباب النزول. قال الإمامُ الوَاحِديُّ رَحِمَهُ اللهُ: «إذ هي أوفَى ما يجبُ الوقوفُ عليها، وأوْلى ما تُصرَفُ العنايةُ إليها، لامتناعِ معرفةِ تفسيرِ الآية وقصْدِ سبيلِها دون الوقوفِ على قِصَّتِها وبيانِ نزولها».(١)

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ومعرفةُ سبب النزول يُعِين على فَهْمِ الآية؛ فإنَّ العِلْمَ بالسَّبَبِ يُورث العِلْم بالمُسبَّب، ولهذا كان أصحُّ قولي الفقهاء أنه إذا لم يُعْرَف ما نواه الحالِفُ؛ رُجِع إلى سببِ يمينِه وما هَيَّجَها وأَثَارَهَا».(٢)

ولنضرب لذلك مثلًا واحدًا يتبينُ به المقصود؛ قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨].

فظاهر هذه الآية الكريمة، نفيُ الجناح عمَّن اطَّوَّف بالصفا والمروة، وهذا وحده لا يدل على الفرضية، لكن إذا عُرِفَ سَبَبُ النُّزولِ، فُهِمَتِ الآيةُ على وجهها، فإنَّ مِن المسلمين من تحرَّجَ عن الطواف بين الصفا والمروة لكونهما في الجاهلية تُعبدُ عندَهما الأصنام، ولهذا تَرْجَمَ الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في صحيحه «باب وجوب الصفا والمروة وجعل مِن شعائرِ الله»، وأورد حديثَ عروة قال: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهَا: أَرَأَيْتِ قَوْلَ الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة:١٥٨] فَوَالله مَا عَلَى أَحَدٍ جُنَاحٌ أَنْ لَا يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ. قَالَتْ: بِئْسَ مَا قُلتَ يَا ابْنَ أُخْتِي، إِنَّ هَذِهِ لَوْ كَانَتْ كَمَا أَوَّلْتَهَا عَلَيْهِ

---

(١) «أسباب النزول» (ص:٧).

(٢) «مقدمة في التفسير» (ص:٤٧).

كَانَتْ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَتطَوَّفَ بِهِمَا، وَلَكِنَّهَا أُنْزِلَتْ فِي الأَنْصَارِ، كَانُوا قَبْلَ أَنْ يُسْلِمُوا يُهِلُّونَ لِمَنَاةَ الطَّاغِيَةِ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا عِنْدَ الـمُشَلَّلِ، فَكَانَ مَنْ أَهَلَّ يَتَحَرَّجُ أَنْ يَطُوفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَلَمَّا أَسْلَمُوا سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ عَنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّا كُنَّا نَتَحَرَّجُ أَنْ نَطُوفَ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَأَنْزَلَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] الآيَةَ. قالت عائشةُ ﵂: وَقَدْ سَنَّ رَسُولُ الله ﷺ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا، فَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَتْرُكَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ أَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَعِلْمٌ مَا كُنْتُ سَمِعْتُهُ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رِجَالًا مِنْ أَهْلِ العِلمِ، يَذْكُرُونَ: أَنَّ النَّاسَ -إِلَّا مَنْ ذَكَرَتْ عَائِشَةُ مِـمَّنْ كَانَ يُهِلُّ بِمَنَاةَ- كَانُوا يَطُوفُونَ كُلُّهُمْ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، فَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى الطَّوَافَ بِالبَيْتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا وَالمَرْوَةَ فِي القُرْآنِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كُنَّا نَطُوفُ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الطَّوَافَ بِالبَيْتِ، فَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، فَهَل عَلَيْنَا مِنْ حَرَجٍ أَنْ نَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٥٨] الآيَةَ.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَسْمَعُ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فِي الَّذِينَ كَانُوا يَتَحَرَّجُونَ أَنْ يَطُوفُوا بِالجَاهِلِيَّةِ بِالصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَالَّذِينَ يَطُوفُونَ ثُمَّ تَحَرَّجُوا أَنْ يَطُوفُوا بِهِمَا فِي الإِسْلَامِ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالطَّوَافِ بِالبَيْتِ، وَلَمْ يَذْكُرِ الصَّفَا، حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا ذَكَرَ الطَّوَافَ بِالبَيْتِ»(١).

---

(١) رواه البخاري في الحج، باب وجوب الصفا والمروة، وجُعِلَ من شعائر الله، رقم (١٦٤٣)، ورواه مسلم في الحج، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصلح الحج إلا به، رقم (١٢٧٧).

الوسيلة الثامنة عشرة: «معرفةُ عِلْمِ الوقْف والابتداء»

ومعرفةُ عِلْمِ الوقْف والابتداء خيرُ مُعينٍ على تدبُّرِ كتابِ الله -جلَّ وعَلا-؛ قال الإمَامُ الزَّركشيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «وهو فنٌّ جليلٌ، وبه يُعرَفُ كيف أداءُ القرآنِ، ويترتب على ذلك فوائدُ كثيرةٌ واستنباطاتٌ غزيرة، وبه تتبيَّنُ معاني الآيات، ويُؤمَنُ الاحترازُ عن الوقوع في المشكلات»[١].

قال عبدُ الله بنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الإِيمَانَ قَبْلَ القُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّورَةُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلاَلَهَا، وَحَرَامَهَا، وَآمِرَهَا، وَزَاجِرَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهَا. كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ اليَوْمَ القُرْآنَ، ثُمَّ لَقَدْ رَأَيْتُ اليَوْمَ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ القُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلاَ زَاجِرُهُ، وَلاَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، فَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقَلِ»[٢].

وهذا النوع من العلم يحتاج إلى فنونٍ كثيرةٍ، قال أبو بكر بنُ مجاهد: «لا يقومُ بالتَّمامِ في الوقفِ إلا نحْويٌّ عالمٌ بالقراءاتِ، عالمٌ بالتفسيرِ والقَصَصِ وتلخيصِ بعضها مِن بعض، عالمٌ باللغةِ التي نَزَل بها القرآن»[٣].

مثالُ ذلك: الوقفُ على قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس:٦٥]. فهنا تم الكلام، ثمَّ يبتدئ: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾، وذلك في قوله الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس:٦٥].

---

(١) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٩٢).
(٢) «السنن الكبرى للبيهقي»، (٣/ ١٢٠).
(٣) «البرهان في علوم القرآن» (١/ ٤٩٤).

الوسيلة التاسعة عشرة: «تحقيقُ التقوى»

ومِن أعظمِ أسبابِ التدبرِ: تحقيقُ التقوى، فإنَّ التقوى جِماعُ الخيرِ كُلِّه؛ فبالتقوى يستنيرُ القلب، وتتنوَّر البصيرة، وتتكشَّفُ حقائقُ العلْمِ على ما هي عليه، قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد:٢٨]، وقال جلَّ وعَلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩].

وقد أخبرَ سبحانه أنَّ مَن اتَّقاه رزَقَه مِن حيثُ لا يحتسب، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

وأيُّ رزقٍ أعظمُ وأجلُّ مِن فَهْمِ مُراد الربِّ -جلَّ وعلا- مِن خطَابه؟!

وقال الإمامُ ابن القيم - رحمه الله- متحدثًا بما أفاء الله عليه من الفُتوحَاتِ الإلهيةِ والمِنَحِ الرَّبانيَّةِ حين تأمُّله في سورة ﴿ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وذِكْرِهِ لفوائدِها وأسرارِها: «فهذا ما فتح اللهُ العظيمُ به مِن هذه الكلماتِ اليسيرة النَّزْرة[1] المشيرةِ إلى عظمةِ هذه السورةِ وجلالتِها ومقصودِها وبديعِ نظمِها، مِن غير استعانةٍ بتفسيرٍ، ولا تتبُّعٍ لهذه الكلماتِ مِن مظانٍّ تُوجد فيه، بل هي استملاءٌ مما علَّمه اللهُ وألهمَه بفضلِه وكرمِه، والله يعلم أني لو وجدتُها في كتابٍ لأضفتُها إلى قائلها ولبالغتُ في استحسانها»[2].

(١) النَّزْرة: أي: القليلة. يُنظر: «لسان العرب» (١٤/ ٩٨).
(٢) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤٩).

الوسيلة العشرون: «اللَّجأُ إلى الله تعالى»

ومما يعينُ على التدبر -أيضا-: اللَّجأُ إلى الله تعالى، وكثرةُ دعاءِه، وإظهارُ شدَّةِ الرغْبةِ في تحقيقِ هذه الغاية، وهو سبحانه وحده الذي يهدي لنوره من يشاء، قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [النور:٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى:٥٢] فهو الذي يفتحُ مغاليقَ القلوبِ، ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢].

ومن الدعاءِ المأثورِ ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلقِكَ، أَوْ أَنْزَلتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»[1]، رواه أحمد، وصحَّحه الألباني.

*****

(١) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رواه أحمد (٦/ ٢٤٦-٢٤٧) رقم (٣٧١٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣/ ٢٥٣). رقم(٩٧٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٠٩)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٣٨٣) رقم (١٩٩).

الفصل الحادي عشر:

في ذكر نماذج من تدبر السلف للقرآن الكريم

وها أنا ذا أسوقُ لك - أيها القارئُ المباركُ- نماذجَ تطبيقيةً مِن تدبر السَّلَفِ الصالحِ لكتابِ الله - جلَّ وعَلا -، وكيف كانوا يعيشون مع القرآن بكُلِّ أحاسيسِهم ويُقْبِلُون عليه بكلِّ قلوبِهم، ولعلَّ هذه الشواهدَ التطبيقيةَ تكونُ حافزًا لِهمَّتِكَ في أن تحذُوَ حذوَهم، وتنتظمَ في سِلكِهم، والله يهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ، والله لا يُضيع أجرَ من أحسنَ عملًا.

النموذج الأول: في فاتحة الكتاب

التي هي أمُّ القرآن، «**لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ، وَلَا فِي الإِنْجِيلِ، وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الفُرْقَانِ مِثْلُهَا**»[1]، وقد أتى العلامةُ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ على شيءٍ كثيرٍ مِن مقاصدِ هذه السورةِ المباركة، مما لا ينقضي منه العجبُ، وذلك في ثلاثةِ مجلداتٍ كِبار، أسماها «مدارج السالكين» ونحن ننقلُ عيونًا مما ذكَرَه رَحِمَهُ اللَّهُ تدلُّ على ما لم يَذْكُرْه، وذلك من خلالِ ثلاثِ وَقَفَات.

* **الوقفة الأولى:** قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ القلبَ يَعرِضُ له مرضانِ عظيمانِ، إنْ لم يتداركهما ترَاميَا به إلى التَّلَفِ ولابُدَّ، وهما: الرِّياءُ والكِبْرُ، فدواءُ الرِّياءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواءُ الكِبْرِ بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وكثيرًا ما كنتُ أسمعُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميةَ - قدَّس اللهُ روحَه- يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: تدفعُ الرياءَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: تدفعُ الكبرياءَ.

فإذا عُوفي مِن مرضِ الرياءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ومِن مرضِ الكبرياءِ والعُجبِ بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ومِن مرضِ الضَّلالِ والجهْلِ بـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾، عُوفيَ من أمراضِه وأسقامِه، ورَفَلَ في أثوابِ العافيةِ، وتمَّتْ عليه النعمةُ، وكان مِن المنْعَمِ عليهم، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وهم أهلُ فسادِ القصْدِ، الذين عَرَفوا الحقَّ وعدَلُوا عنه، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهم أهلُ فسادِ العِلمِ، الذين جَهِلوا الحقَّ ولم يعرفوه.

وحُقَّ لسورةٍ تشتملُ على هذا الشفاءِ أن يُستشفَى بها مِن كل مرضٍ؛ ولهذا لما اشتملت على هذا الشِّفاءِ الذي هو أعظم الشِّفَاءين، كان حصولُ الشِّفاءِ الأدنى بها

---

(١) حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رواه الترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل فاتحة الكتاب، رقم (٢٨٧٥)، وصحَّحه الألباني.

أَوْلى كما سنُبيِّنُه. فلا شيءَ أشفَى للقلوبِ التي عَقلَت عن الله كلامَه، وفهِمَت عنه فهْمًا خَاصًّا اختَصَّها به مِن معاني هذه السورة»[1].

* **الوقفة الثانية**: وجهُ الإتيانِ بضميرِ الـجَمْعِ في قولِه تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ [الفاتحة:٦].

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصَّوابُ أن يُقالَ: هذا مطابقٌ لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥] والإتيانُ بضميرِ الجمْعِ في الموضعينِ أحسنُ وأفخمُ، فإنَّ المقامَ مقامُ عبوديةٍ وافتقارٍ إلى الربِّ تعالى، وإقرارٍ بالفَاقَةِ إلى عبوديتِه واستعانتِه وهدايتِه، فأتَى فيه بصيغةِ ضميرِ الجمْعِ، أي: نحنُ معاشرَ عبيدِكَ مُقرُّونَ لك بالعبوديةِ، وهذا كما يقولُ العبدُ للملكِ المعظَّمِ شأنُه: «نحن عبيدُكَ ومماليكُكَ وتحتَ طاعتِكَ ولا نخالفُ أمرَكَ»، فيكونُ هذا أحسَنَ وأعظمَ موقعًا عند الملِك مِن أنْ يقول: «أنا عبدُكَ ومملوكُكَ»، ولهذا لو قال: «أنا وحدي مملوكُكَ»؛ استدعى مَقْتَه، فإذا قال: «أنا وكُلُّ مَن في البلدِ مماليكُكَ وعَبيدُكَ وجُندٌ لكَ»، كان أعظمَ وأفخمَ لأنَّ ذلك يتضمنُ أنَّ عبيدَكَ كثيرٌ جدًا، وأنا واحدٌ منهم، فكُلُّنا مشتركونَ في عبوديتِك والاستعانةِ بك وطلبِ الهدايةِ منك، فقد تضمَّنَ ذلك مِن الثَّناءِ على الربِّ بسَعَةِ مجْدِهِ وكثرةِ عبيدِهِ وكثرةِ سائليه الهدايةَ مَا لا يتضمنُه لفظُ الإفرادِ؛ فتأَمَّلْه.

وإذا تأملتَ أدعيةَ القرآنِ، رأيتَ عامَّتَها على هذا النَّمطِ، نحوُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١]، ونحوُ دعاءِ آخرِ البقرةِ، وآخرِ آلِ عمرانَ وأوَّلِها، وهو أكثرُ أدعيةِ القرآنِ الكريمِ»[2].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٨٧-٢٨٨).
(٢) «بدائع الفوائد» (٢/ ٤٥١-٤٥٢).

* **الوقفة الثالثة: قولُه تعالى:** ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أضافَ النِّعمةَ إليه، وحذفَ فاعلَ الغضب لوجوهٍ، منها: أنَّ النعمةَ هي الخيرُ والفضْلُ، والغضَبُ مِن بابِ الانتقامِ والعدْلِ، والرحمةُ تغْلِبُ الغَضبَ؛ فأضافَ إلى نفسِه أكملَ الأمرين وأسبقَهُما وأقواهُما، وهذه طريقةُ القرآنِ في إسنادِ الخيرات والنِّعم إليه، وحَذْفِ الفاعلِ في مُقَابلِها؛ كقولِ مؤمِني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن:١٠]، ومنه قولُ الخَضِرِ في شأنِ الجدارِ واليتيمين: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف:٨٢]، وقال في خَرْقِه السَّفينةَ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩]، ثمَّ قال بعد ذلك: ﴿وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِي﴾ [الكهف:٨٢]»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «في حذفِ فاعلِ الغضبِ مِن الإشعارِ بإهانةِ المغضُوبِ عليه وتحقيرِه وتصغيرِ شأنِه، ما ليس في ذِكْرِه. وفي ذِكْر فاعلِ النِّعمةِ مِن إكرامِ الـمُنْعَم عليه والإشادةِ بذكْرِه ورفْعِ قدْرِه، ما ليس في حَذفِه.

فإذا رأيتَ مَن قد أكرمَه مَلِكٌ وشَرَّفه ورَفَعَ قدره، فقلتَ: هذا الذي أكرمَه السلطانُ وخلعَ عليه وأعطاه ما تمنَّاه، كان أبلغَ في الثَّناءِ والتعظيمِ مِن قولِك: هذا الذي أُكرِم وخُلِعَ عليه وشرِّفَ وأُعْطِي»(٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كانَ طالبُ الصِّراطِ المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ النَّاسِ ناكبونَ عنه، مُريدًا لسلوكِ طريقٍ مُرافِقُه فيها في غَايةِ العِزَّةِ، والنفوسُ مجبولةٌ على وحشةِ التفردِ، وعلى الأُنسِ بالرفيقِ، نبَّه اللهُ -سبحانه- على الرفيق في هذه الطريق؛ وأنهم

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥).
(٢) «المصدر السابق» (١/ ١٨٧-١٨٨).

هم: ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩] ، فأضافَ الصِّراطَ إلى الرفيقِ السَّالكين له؛ وهم الذين أنعمَ اللهُ عليهم؛ ليزولَ عن الطالبِ للهدايةِ وسلوكِ الصراطِ وحشةُ تفرُّدِه عن أهل زمانه وبني جنسه، وليعلَمَ أنَّ رفيقَه في هذا الصِّراط هم الذين أنعمَ اللهُ عليهم، فلا يكْتَرِثُ بمُخالَفةِ النَّاكبِينَ عنه له؛ فإنَّهم هم الأقلُّونَ قدْرًا، وإنْ كانوا الأكثرينَ عَددًا، كما قالَ بعضُ السَّلفِ: «عليكَ بطريقِ الحقِّ، ولا تَسْتَوْحِشْ لقلَّةِ السالكين، وإياكَ وطريقَ الباطلِ، ولا تغترَّ بكثرةِ الهالكين». وكلما اسْتَوْحَشْتَ في تفرُّدِك فانظرْ إلى الرفيقِ السابقِ، واحرصْ على اللِّحاقِ بهم، وغُضَّ الطرفَ عمَّن سِواهم؛ فإنهم لن يغنوا عنك مِن الله شيئًا، وإذا صَاحوا بك في طريقِ سَيْرِكَ فلا تلتفتْ إليهِم؛ فإنَّكَ متى التفتَّ إليهم أخذوك أوعَاقوكَ»[1].

(١) «المصدر السابق» (١/ ٢٠٨-٢٠٩).

النموذجُ الثاني: قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦].

قال الشَّيخُ عبدُ الرحمنِ الدُّوسَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومَن تأمَّل هذه الآيةَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]، وَجدَ أنَّ اللهَ لم يَقُل لمحمدٍ ﷺ فقُلْ: إنِّي قَريبٌ[١]؛ بل قال: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لِيدلَّ على تعظيمِ حالِ الدُّعاءِ مِن وجوه:

- أحدها: كأنَّه سبحانه يقولُ: عَبْدي أنتَ لا تحتاجُ إلى الواسطةِ، إلا في طريقِ تحصيلِ الهدايةِ، فإنها من طريقِ رُسُلِي، وأمَّا في مقامِ الدعاءِ فلا واسطة بيني وبينِك، وفي هذا أعظمُ ردٍّ على المشركين ومَن قلَّدَهم مِن القُبُوريِّين.

- ثانيها: أنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ يدلُّ على أن العبدَ له، وقولُه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ يدل على أنَّ الربَّ للعبد.

- ثالثها: أنَّه تعالى لم يقلْ: «فالعبدُ منِّي قَريبٌ» بل قال: «أنا منه قَريبٌ». وفيه سِرٌّ نفيسٌ، وهو أنَّ العبدَ مخلوقٌ مُمكنُ الوجود، ومحتومٌ عليه بالفناء، فلا يمكنُه القربُ مِن الرَّبِّ. أمَّا الرَّبُّ - سبحانه- فهو القادرُ مِن أنْ يقربَ من العبدِ بفضلِه ورحمتِه، كما هو قريبٌ منه بعِلْمِه، بل هو أقربُ إلى الإنسانِ مِن حَبلِ وريدِه، فالقُرْبُ مِن الله لا مِن العبدِ، فيحصلُ مِن الله - سبحانه- للعبدِ قربُ الفضلِ والرحمةِ، إذا دعاه بعد تحقيقِ الإيمانِ والاستجابةِ، فإنَّ رحمةَ الله قريبٌ مِن المحسنين، فلهذا قالَ تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾»[٢].

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١] ، وما شابه ذلك.

(٢) وإذا أراد الله بعبدِه خيرًا قرَّبه، وهيَّأ له وسائل الزلفى لديه من الأعمال الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ [العلق:١٩] ، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «وما يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يُبصِر به، ويدَه التي يبطش بها، ورِجلَه

- رابعها: أنَّ الداعي ما دام خاطرُه منشغلًا بغير الله مِن المحبوباتِ والمعشوقاتِ؛ فإنه لا يكونُ في دعائِه على الحالِةِ التي يرضَاها اللهُ ويطلبُهَا مِن العبدِ، فلا يحظَى بالقُرْبِ حتى يستفرغَ قلبَه مِن كلِّ ما سوى الله، ويكونَ اللهُ غايةَ قصْدِهِ في كلِّ شيءٍ، حتى لا تحْجُبُه الأغراضُ النَّفسيةُ عن الله، فهذه الآيةُ الكريمةُ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ هي مِن ركائزِ التَّوحيدِ ودعَائِمِه؛ إذ فيه توجيهٌ للسائلِ إلى تحقيقِ الإيمانِ بالاستجابةِ لله، وإذا حصَلَ هذا، اكتسبَ العبدُ بدعائِه سَكِينةً في نفْسِه وانشراحًا في صدرِه وصبْرًا يُسَهِّلُ عليه ما يلاقيه إذا لم يحظَ بسُرعةِ الإجابةِ، فكيف إذا حَظِيَ بها؟»[1].

التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه»، وقال: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني ....، وإنْ تقرَّب إلي بشبرٍ تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرَّب إلي ذراعًا تقربتُ إليه باعًا، وإنْ أتاني يمشي أتيتُه هرولَةً»... الحديث.

(١) «صفوة الآثار والمفاهيم» (٣/ ١٧٢).

النموذجُ الثالثُ: آيةُ الكرسي

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره: «هذه الآيةُ مشْتمِلةٌ على عشْرِ جُملٍ مستقلةٍ»[١].

وقال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «ليس في القرآنِ آيةٌ واحدةٌ تضمَّنتْ ما تَضَمَّنتْهُ آيةُ الكُرْسِيِّ»[٢].

وقال أيضًا: «وكانت آيةُ الكُرْسِيِّ أفضلَ آيةٍ في القُرآنِ؛ لأنَّها خَبرٌ عن الله، فما كان مِن الذِّكْرِ مِن جِنسِ هذه السُّورةِ وهذه الآية، فهو أفضلُ الأنواعِ[٣]... ففي صحيح مسلم: أنَّ النبي ﷺ قال يا أُبَيُّ: أتدري أي آيةٍ في كتابِ الله أعظَمُ؟ قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لِيَهْنِكَ العِلمُ أَبَا المُنْذِرِ**»[٤]، فأخبرَ في هذا الحديثِ الصحيحِ أنَّها أعظمُ آيةٍ في القرآن، وفي ذاك أنها أعلى شُعبِ الإيمانِ، وهذا غايةُ الفضلِ، فإنَّ الأمرَ كُلَّه مُجتَمِعٌ في القرآنِ والإيمانِ، فإذا كانت أعظمَ القرآنِ وأعلى الإيمانِ، ثبَتَ لها غايةُ الرجحان»[٥].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٧٨).
(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٣٠).
(٣) «المصدر السابق» (٢٢/ ٣٧٦).
(٤) «سبق تخريجه» (ص: ٥٨).
(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٢٣٥).

النموذجُ الرابعُ: قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام:١٥١].

قولُه: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ قال ابنُ عباسٍ وقتادةُ والسُّدِّيُّ: «هو الفقرُ، أي ولا تقتلوهم مِن فَقْرِكُم الحاصِل، وقال في سورةِ ﴿سُبْحَـٰنَ﴾: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء:٣١]، أي: خشيةَ حصولِ فقْرٍ في الآجِلِ؛ ولهذا قال هُناك: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء:٣١] فبدأ برزقِهِم للاهتمامِ بهم، أي لا تخافوا مِن فقرِكم بسببِهم، فرِزْقُهم على الله، وأمَّا في هذه الآية فلما كان الفقرُ حاصلًا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾؛ لأنه الأهمُّ ها هنا، والله أعلم»[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦٢).

النموذجُ الخامسُ: قولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١].

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تأمَّلَ قولَه سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقولَه في اللواطِ: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [الأعراف:٨٠]، تبيَّنَ له تفاوتُ ما بينهما، فإنه - سبحانه- نكَّر الفاحشةَ في الزنا، أي هو فاحشةٌ من الفواحِشِ، وعرَّفَها في اللِّواطِ، وذلك يفيدُ أنه جامعٌ لمعاني اسمِ الفاحشة، كما تقولُ: زيدٌ الرَّجل، ونِعمَ الرَّجل زيد، أي أتأتون الخصلةَ التي استقر فُحْشُها عند كُلِّ أحدٍ، فهي لظهورِ فُحشِها وكمالِه غَنيةٌ عن ذِكْرِها، بحيثُ لا ينصرفُ الاسمُ إلى غيرِها، وهذا نظيرُ قولِ فرعونَ لموسى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء:١٩]، أي الفعلَة الشنعاءَ الظاهرةَ المعلومةَ لكلِّ أحد»[(١)].

النموذج السادس: في تصديرِ المعاتبةِ بالعفو في قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة:٤٣].

تخفيفٌ مِن وطأةِ العتابِ لِلنَّبيِّ ﷺ، بخلافِ ما لَو عاتبَه ثمَّ عَفَا عنه.

روى ابنُ أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عَونٍ قال: «سمعتُم بمعاتبةٍ أحسنَ مِن هذا؟ بدأ بالعَفوِ قبلَ الـمُعاتبَة فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾»[(٢)].

---

(١) «الداء والدواء» (ص:٣٩٩).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦/ ١٨٠٥).

النموذج السابع: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢].

والمتدبِّرُ في كتابِ الله -تعالى- يجدُ أنَّ لفظَ الرِّياحِ بالجمعِ تردُ في مقامِ الرحمةِ والنعمةِ والرزقِ والخيرِ، ولفظُ الرِّيحِ بالإفرادِ تأتي في مَقامِ العذابِ والعقوبةِ والهلاكِ؛ فَمِن الأوَّل قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٧].

ومن الثاني قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «تأمَّل كيف اطَّردَ هذا، إلا في قولِه في سورةِ يونُس: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس:٢٢]، فَذَكَرَ ريحَ الرحمةِ الطيبةِ بلفظِ الإفرادِ؛ لأنَّ تمامَ الرحمةِ هناك إنما تحصلُ بِوحْدةِ الريحِ لا باختلافِها، فإن السفينةَ لا تسيرُ إلا بريحٍ واحدةٍ مِن وجهٍ واحدٍ تسيّرها، فإذا اختلفَت عليها الرياحُ وتصادمَت وتقابلَت؛ فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هناكَ ريحٌ واحدةٌ لا رياح، وأكَّدَ هذا المعنى بوصفِها بالطِّيبِ؛ دفعًا لتوهمِ أن تكونَ ريحًا عاصفةً، بل هي مما يُفرَح بها لطِيبِها، فلينزِّه الفَطنُ بصيرَتَه في هذه الرِّياضِ المُونِقةِ المعْجِبةِ، التي ترقصُ

القُلوبُ لها فرحًا، ويُغتذَى بها عن الطعامِ والشرابِ، فالحمدُ لله الفتاحِ العليمِ. فمِثْلُ هذا الفصلِ يُعَضُّ عليه بالنَّواجِذِ، وتُثنَى عليه الخناصرُ؛ فإنَّه يُشرِفُ بك على أسرارِ عَجائبَ تجتنيها مِن كلامِ الله، واللهُ الموفِّقُ للصوابِ»(١).

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٠٧-٢٠٨).

النموذجُ الثامنُ: قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولفظُ العبدِ في القرآنِ يتناولُ مَن عبدَ اللهَ، فأما عبْدٌ لا يعبُدُه فلا يُطلق عليه لفظُ عبده، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]، وأما قولُه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢] فالاستثناءُ فيه مُنقَطِعٌ، كما قالَه أكثرُ المفسرينَ والعلماءِ، وقولُه: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان:٦]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان:٦٣]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص:١٧]، ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص:٤٤]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص:٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص:٤٥]، ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف:٦٥]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٣]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، ونحو هذا كثيرٌ»[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٤٣-٤٤).

النموذج التاسع: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد:١٦-١٧].

قد أشارَ الإمامُ ابنُ كثير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى سرِّ العلاقةِ بين هاتين الآيتينِ الكريمتين فقال: «فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى يُليِّنُ القلوبَ بعدَ قسْوتِها، ويَهدي الحَيَارى بعد ضَلَّتِها، ويفرِّجُ الكروبَ بعدَ شدَّتِها، فكما يُحيي الأرضَ الميتةَ المجدبةَ الهامدةَ بالغيثِ الهتَّان الوابل، كذلك يَهدي القلوبَ القاسيةَ ببراهينِ القرآنِ والدلائلِ، ويولجُ إليها النورَ بعدَ ما كانتْ مقفلةً لا يصلُ إليها الواصلُ، فسبحانَ الهادي لمن يشاءُ بعدَ الإضلالِ، والمضلِّ لمن أرادَ بعد الكمالِ، الذي هو لما يشاءُ فعَّال، وهو الحكمُ العدلُ في جميعِ الفِعالِ، اللطيفِ الخبيرِ الكبيرِ المتعالِ»[١].

وروى الإمامُ ابنُ جريرٍ الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن هشامِ بنِ عُروةَ، عنْ أبِيهِ، قال: تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد:٢٤]، فقالَ شابٌّ مِن أهلِ اليمَنِ: بلْ عليْهَا أقْفالُهَا، حتَّى يكُونَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يفْتَحُهَا أَوْ يفْرُجُهَا، فما زَالَ الشَّابُّ فِي نَفْسِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى وُلِّيَ، فَاسْتَعَانَ بِهِ[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١).
(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢١٧).

النموذجُ العاشرُ: سورةُ النصر

قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر:١-٣].

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان عمرُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يسأل عن معاني الآياتِ الدقيقةِ، وقد سأل أصحابَه عن قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر:١] فذكَروا ظاهرَ لفظِها، ولما فسَّرها ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأنَّها إعلامُ النَّبيِّ ﷺ بقُرْب وفاتِه، قالَ: ما أعلَمُ منها إلا ما تعْلَمُ، وهذا باطنُ الآيةِ الموافقِ لظاهرِها. فإنَّه لما أمَرَ بالاستغفارِ عند ظهورِ الدِّين، والاستغفارُ يُؤمَرُ به عند ختامِ الأعمالِ، وبظهورِ الدِّين حصلَ مقصودُ الرسالةِ؛ علِموا أنَّه إعلامٌ بقُرْبِ الأجَلِ مع أمورٍ أُخرَ، وفوق كلِّ ذي عِلْمٍ عليمٌ»(١).

وقال: «لأنَّ المغفرةَ نهايةُ الخير»(٢).

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/ ٤١٧).

(٢) «شرح العمدة» (٢/ ١٣٧).

النموذجُ الحادي عشر: السرُّ في تكرارِ الأفعالِ في سورة «ٱلْكَٰفِرُونَ».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون:١-٦].

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أما المسألةُ الثانيةُ: وهي فائدةُ تكرارِ الأفعال، فقيل فيه وجوهٌ:

أحدها أنَّ قولَه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢] نفيٌ للحَالِ والمستقبلِ، وقولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] مُقَابِلُه، أي: لا تفعلونَ ذلك، وقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ [الكافرون:٤] أي: لم يكن مِنِّي ذلك قطُّ قبلَ نزولِ الوحي، ولهذا أتى في عبادتِهم بلفظِ الماضي، فقال: ﴿مَا عَبَدتُّمْ﴾، فكأنَّه قال: لم أعبدْ قطُّ ما عبدتُم، وقولُه تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٥] مُقَابِلُه، أي: لم تعبدُوا قطُّ في الماضي ما أعبدُه أنا دائمًا، وعلى هذا فلا تكرار أصلًا، وقد اسْتَوْفَتِ الآياتُ أقسَامَ النفي- مَاضيًا وحالًا ومستقبلًا- عن عبادتِه وعبادتِهم، بأوجزِ لفظٍ وأخصَرِه وأبْيَنِه، وهذا -إنْ شاء الله- أحسن ما قيل فيها، فَلْنقتصرْ عليه، ولا نتعداه إلى غيره.

وأمَّا المسألةُ السادسةُ: وهي اشتمالُ هذه السورة على النفي المحض، فهذا هو خاصةُ هذه السُّورةِ العظيمةِ، فإنها سورةُ براءةٍ مِن الشِّركِ كما جاء في وصفِها: «إِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ»[1]، فمقصودُها الأعظمُ هو البراءة المطلوبةُ بين الموحِّدينَ والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقًا للبراءةِ المطلوبةِ، هذا مع أنَّها متضمنةٌ للإثبات صريحًا، فقولُه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢] براءةٌ محْضَةٌ،

---

(١) حديث أبي فروة الأشجعي رضي الله عنه: رواه أبو داود في الأدب، باب ما يُقال عند النوم، رقم (٥٠٥٥)، والترمذي في الدعوات، باب منه، رقم(٣٤٠٣)، وصحَّحه الألباني.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣] إثباتُ أنَّ له معبودًا يعبدُه، وأنهم بريئونَ مِن عبادته، فتضمَّنت النَّفيَ والإثباتَ، وطابقتْ قولَ إمامِ الحنفاءِ: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف:٢٦-٢٧]، وطابقت قولَ الفتية الموحِّدِينَ: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف:١٦] فانتظمت حقيقةَ لا إله إلا الله.

ولهذا كان النبيُّ ﷺ يقرأ بها وبـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في سُنَّةِ الفجر وسُنَّةِ المغرب، فإنَّ هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيدِ الذي لا نجاةَ للعبدِ ولا فلاحَ إلا بهما، وهما:

توحيدُ العلم والاعتقاد، المتضمِّنُ تنزيهَ الله عمَّا لا يليقُ به مِن الشركِ والكفرِ والولدِ والوالدِ، وأنه إلهٌ أحدٌ صمدٌ، لم يلد فيكون له فرعٌ، ولم يُولَد فيكون له أصلٌ، ولم يكن له كفوًا أحد، فيكون له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفاتُ الكمال كلُّها، فتضمنت السورة إثباتَ ما يليق بجلالِه مِن صفاتِ الكمال ونَفْي ما لا يليق به مِن الشريك أصلًا وفرعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العلمِ والاعتقادِ.

والثاني: **توحيدُ القصْدِ والإرادةِ**، وهو أن لا يُعبَد إلا إياه، فلا يُشرَك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبودُ، وسورة ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ مشتملةٌ على هذا التوحيد، فانتظمت السورتان نوعي التوحيدِ وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتحُ بهما النَّهارَ في سُنَّة الفجرِ ويَختِمُ بهما في سُنَّةِ المغرب. وفي السُّنن أنه كان يُوتر بهما، فيكونا خاتمةَ عمَلِ الليلِ كما كانا خَاتِمةَ عملِ النَّهارِ»[1].

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ٢٣٨-٢٤٤) مختصرا.

النموذجُ الثاني عشر: سورةُ الإخلاص

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليس في القرآن سورةٌ هي وَصفُ الرحمنِ محضًا إلا هذه السُّورة... وقد بينَّا أنَّ أحسنَ الوجوهِ أنَّ معاني القرآنِ ثلاثةُ أنواع: توحيدٌ وقَصصٌ وأحكامٌ، وهذه السورةُ صفةُ الرحمنِ؛ فيها التوحيدُ وَحْده»(١).

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتضمنت هذه السورةُ إثباتَ كُلِّ كمالٍ له، ونفيَ كُلِّ نقْص عنه، ونفيَ إثبات شبيهٍ أو مثيلٍ له في كماله، ونفيَ مطلقِ الشريكِ عنه، وهذه الأصولُ هي مجامعُ التوحيدِ العلمي الاعتقادي الذي يُباين صاحبُه جميعَ فرقِ الضلالِ والشركِ، ولذلك كانت تَعْدِلُ ثلثَ القرآنِ؛ فإن القرآنَ مدارُه على الخبرِ والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمرٌ، ونهيٌ، وإباحةٌ، والخبرُ نوعان: خبرٌ عن الخالقِ -تعالى- وأسمائِه وصفاتِه وأحكامِه، وخبرٌ عن خلقِه، فأخْلَصَتْ سورةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخبرَ عنه، وعن أسمائِه، وِصفاتِه، فعدلتْ ثلثَ القرآن، وخلَّصت قارئَها المؤمنَ بها من الشرك العلمى، كما خلَّصت سورةُ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ من الشركِ العملي الإرادي القصدي. ولما كان العِلم قبل العمل وهو إمامُه وقائدُه وسائقُه، والحاكُم عليه ومنزلُه مَنازِلَه، كانت سورةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدِل ثلثَ القران. والأحاديث بذلك تكاد تبلغُ مبلغَ التواترِ، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، تعدِل ربعَ القرآنِ، والحديثُ بذلك في الترمذي من روايةِ ابنِ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يرفعه: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ **تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرآنِ، وَ**﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ **تَعدِلُ**

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧/ ١٣٤).

ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ»، رواه الحاكم في «المستدرك»، وقال: «صحيح الإسناد».

ولما كان الشركُ العمَليُّ الإراديُّ أغلبَ على النفوسِ لأجْلِ متابعتِها هواهَا، وكثيرٌ منها ترتكبه مع علمِها بمضرَّته وبُطلانِه، لِـمَا لهَا فيه مِن نيلِ الأغراضِ، وإزالتُه، وقلعُه منها أصعبُ، وأشدُّ مِن قلْعِ الشركِ العِلمي وإزالتِه، لأن هذا يزولُ بالعلمِ والحُجَّةِ، ولا يمكنُ صاحبُه أنْ يعلمَ الشيءَ على غيرِ ما هو عليه، بخلافِ شركِ الإرادة والقصدِ، فإن صاحبَه يرتكِبُ ما يدلُّه العِلمُ على بطلانِه وضررِه لأجلِ غلبةِ هواه، واستيلاءِ سُلطانِ الشهوةِ والغضبِ على نفسِه، فجاء مِن التأكيدِ والتَّكرارِ في سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتضمنةِ لإزالةِ الشركِ العملي، ما لم يجيء مثلُه في سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾»[1].

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٣٠٦-٣٠٧).

النموذجُ الثالث عشر: سورةُ الناس

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦].

قال العلَّامةُ ابنُ عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «تفسيرِه»: «وقَدَّمَ ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ على ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ هنا لأنهم أصلُ الوَسْواسِ، كما علمتَ، بخلاف تقديمِ الإنسِ على الجنِّ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢] لأنَّ خُبثاءَ الناسِ أشدُّ مخالطةً للأنبياءِ من الشياطين، لأنَّ اللهَ عصمَ أنبياءَه مِن تسلُّطِ الشياطين على نفوسهم قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر:٤٢]؛ فإن اللهَ أرادَ إبلاغَ وحيِه لأنبيائِه فزكَّى نفوسَهم من خبثِ وسوسةِ الشياطين، ولم يعصمهم مِن لحاقِ ضرِّ الناسِ بهم، والكيدِ لهم لضعفِ خطرِه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] ولكنه ضمِنَ لرسلِه النجاةَ من كلِّ ما يقطعُ إبلاغَ الرسالةِ إلى أنْ يَتمَّ مرادُ الله».[١]

(١) «التحرير والتنوير» (مجلد ١٢، ٣٠/ ٦٣٥).

النموذجُ الرابع عشر: الحروفُ المقطّعة

للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ نفيسٌ جدًا حول الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السورِ؛ نسوقُه بطولِه لأهميتِه وفائدتِه:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصحيحُ أنَّ ﴿نٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿صٓ﴾ مِن حروفِ الهجاءِ التي يفتتحُ الربُّ – سبحانه – بها بعضَ السورِ، وهي أُحاديةٌ وثنائيةٌ وثلاثيةٌ ورباعيةٌ وخماسيةٌ، ولم تجاوز الخمسةَ، ولم تُذكر قط في أوَّل سُورة إلا وعَقِبَها يُذكر القرآنُ إمَّا مُقْسَمًا به وإمَّا مُخبَرًا عنه، ما خلا سورتين سورة ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ و﴿نٓ﴾، كقولِه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة:١-٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران:١-٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١-٢]، ﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:١] وهكذا إلى آخرِها.

ففي هذا تنبيهٌ على شرفِ هذه الحروفِ، وعظمِ قدرِها، وجلالتها، إذ هي مباني كلامِه، وكُتبِه التي تكلَّمَ سبحانه بها، وأنزلَها على رُسلِه، وهَدى بها عبادَه، وعرَّفَهم بواسطتِها نفسَه وأسماءَه وصفاتِه وأفْعالَه، وأمرَه ونهيَه، ووعدَه ووعيدَه، وعرَّفَهم بها الخيرَ والشرَ، والحسنَ والقبيحَ، وأقدَرَهم على التكلُّمِ بها بحيث يَبلغون بها أقصى ما في أنفسِهم بأسهل طريقٍ، وأَقلِّه كُلْفةً ومشقةً، وأوصلِه إلى المقصودِ، وأدلِّه عليه، وهذا مِن أعظمِ نعمِه عليهم، كما هو مِن أعظمِ آياتِه.

ولهذا عاب – سبحانه– على مَن عبدَ إلهًا لا يتكلم، وامتنَّ على عبادِه بأنْ أقدرَهم على البيانِ بها بالكلامِ. فكان في ذِكرِ هذه الحروفِ التنبيهُ على كمالِ ربوبيته، وكمالِ إحسانِه وإنعامِه، فهي أَوْلى أن يُقْسَم بها مِن الليلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقمرِ والسَّماءِ والنُّجومِ وغيرِها مِن المخلوقات؛ فهي دالةٌ أظهرَ دِلالَةٍ على وحدَانيتهِ وقدرَتهِ وحكمتهِ وكمالِه وكلامِه وصِدْقِ رُسُلِه.

وقد جمعَ سبحانه بين الأمرين – أعني: القرآنَ ونُطقَ اللسانِ- وجعلَ تعليمَهما مِن تمامِ نعمتِه وامتنانِه، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤]، فبهذه الحروفِ علَّمَ القرآنَ، وبها علَّمَ البيانَ، وبها فضَّلَ الإنسانَ على سائرِ أنواعِ الحيوان، وبها أنزلَ كُتبَه، وبها أرسلَ رسلَه، وبها جُمعَتِ العلومُ وحُفِظَتْ، وبها انتَظمتْ مصالحُ العبادِ في المعاش والمعاد، وبها تميَّز الحقُّ من الباطلِ، والصحيحُ من الفاسدِ، وبها جُمعت أشتاتُ العلومِ، وبها أمكن تنقُّلُها في الأذهانِ، وكم جُلِبَ بها من نعمةٍ، ودُفِع بها مِن نِقمةٍ، وأُقيلت بها مِن عثرةٍ، وأُقيمت بها مِن حُرمةٍ، وهُدي بها مِن ضلالٍ، وأُقيمَ بها مِن حقٍّ، وهُدِمَ بها مِن باطلٍ.

فآياته سبحانه في تعليمِ البيانِ كآياتِه في خلقِ الإنسانِ، و:

لَوْلا عَجائبُ صُنْعِ الله مَا ثَبَتَتْ ** تِلكَ الفضَائلُ في لَحم ولا عَصَبِ

فسبحان مَن هذا صُنْعُه في هواءٍ يخرجُ مِن قصبةِ الرئة، فينضمُّ في الحلقوم، ثم ينفرشُ في أقصى الحلقِ ووسطِه وآخرِه، وأعلاه وأسفلِه، وعلى وسطِ اللسان وأطرافِه، وبيْن الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم، فيُسمع له عند كُلِّ مقطعٍ مِن تلك المقاطعِ صوتٌ غيرُ صوتِ المقطع المجاورِ له فإذا هو حروفٌ.

فألْهَم سبحانه الإنسانَ نظْمَ بعضِها إلى بعض، فإذا هي كلماتٌ قائمةٌ بأنفسِها، ثمَّ ألهمهم تأليفَ تلك الكلماتِ بعضها إلى بعض، فإذا هي كلامٌ دالٌّ على أنواع المعاني: أمرًا ونهيًا، وخبرًا واستخبارًا، ونفيًا وإثباتًا، وإقرارًا وإنكارًا، وتصديقًا وتكذيبًا، وإيجابًا واستحبابًا، وسؤالًا وجوابًا، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب: نظمِه ونثرِه، ووجيزِه ومطوّلِه، على اختلاف لغات الخلائق، كلُّ ذلك صَنعتُه -تبارك وتعالى- في هواءٍ مجردٍ خارجٍ من باطنِ الإنسانِ إلى ظاهرِه، جارٍ في

مجَارٍ قد هُيئت وأُعدت لتقطيعِه وتفصيلِه، ثم لتأليفِه وتوصيلِه، فتبارك اللهُ ربُّ العالمين، وأحسنُ الخالقين، فهذا شأنُ الحرفِ المخلوقِ.

وأما الحرْفُ الذي تُكوَّن به المخلوقات، فشأنُه أعلى وأجلُّ، وإذا كان هذا شأن الحروف، فحقيقٌ أن تُفتتحَ بها السور، كما افتُتِحت بالأَقْسَامِ لِـمَا فيها من آياتِ الربوبيةِ، وأدلةِ الوحدانية؛ فهي دالةٌ على كمالِ قدرتِه -سبحانه-، وكمالِ علمِه، وكمالِ حكمتِه، وكمالِ رحمتِهِ وعنايته بخلقه، ولطفه، وإحسانه.

وإذا أَعطيتَ الاستدلال بها حقَّه استدللتَ بها على المبدأِ والمعادِ والخلقِ والأمرِ والتوحيدِ والرسالةِ، فهي من أظهر أدلة شهادةِ «أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله»، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله تكلَّم به حقًّا، وأنزلَه على رسولِه وحيًا، وبلَّغَه كما أُوحي إليه صِدقًا. ولا تُهمِلِ الفكرةَ في كلِّ سورةٍ افتُتِحت بهذه الحروف، واشتمالِـها على آياتِ هذه المطالبِ وتقريرِها، وبالله التوفيق»[1].

(١) «التبيان في أيمان القرآن»، (ص:٢٩٩-٣٠٢).

النموذج الخامس عشر: سجدات القرآن[1]

في القرآنِ الكريمِ خمسَ عشرةَ سجدةً على المختار[2][3]، وهي نوعان، قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «مواضعُ السَّجَداتِ في القرآنِ نوعان: إخبارٌ وأمرٌ، فالإخبارُ خبرٌ مِن الله تعالى عن سجودِ مخلوقاتِه له عمومًا أو خصوصًا، فسُنَّ للتالي والسامِع وجوبًا أو استحبابا أن يتشبَّه بهم عند تلاوةِ آيةِ السجدةِ أو سماعِها، وآيات الأوامرِ بطريقِ الأَوْلى»[4].

فالسجداتُ السِّتُ الأولى خبرٌ عن أهلِ السجودِ، ومدحٌ لهم، وهو النَّوعُ الأولُ مِن نوعي السَّجداتِ في القرآنِ الكريمِ، أما النَّوعُ الثاني فهو ما بيْن أمرٍ بالسجودِ وذمٍّ على ترْكِه، إلا ﴿ صٓ ﴾.

---

(١) للاستزادة يُنظَر كتابنا: «عون المعبود ببيان أحكام السجود وسجود التلاوة»، ط. دار العاصمة.

(٢) واختاره الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ، ينظر: «فتح ذي الجلال والإكرام» (٤/ ١٠٧).

(٣) قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «وقد أجمع العلماء على أنه يسجد، وفي عشرة مواضع؛ وهي متوالية إلا ثانية الحج، وص». «فتح الباري» (٢/ ٥٥١).

(٤) «إعلام الموقعين» (٤/ ٣٠٧).

النموذجُ السادس عشر: سرُّ الاستعاذةِ بالله العظيمِ من الشيطانِ الرجيمِ عند قراءةِ القرآنِ الكريمِ

قال الإمامُ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأمَرَ سبحانه بالاستعاذة به من الشيطانِ، عند قراءةِ القرآنِ، وفي ذلك وجوه:

منها: أنَّ القرآنَ شفاءٌ لما في الصدورِ، مُذهِبٌ لما يُلقيه الشيطانُ فيها مِن الوساوسِ والشهواتِ والإراداتِ الفاسدةِ؛ فهو دواءٌ لما أثَّره فيها الشيطان، فأمر أنْ يَطرُدَ مادةَ الدَّاءِ ويُخلِي منه القلبَ لِيصادِفَ الدواءُ مَحَلًّا خاليًا فيتمكَّنَ منه، ويؤثِّرَ فيه، كما قيل:

أتاني هَوَاهَا قَبْلَ أنْ أعرِفَ الهَوَى ** فصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فتَمَكَّنَا[1]

فيجيءُ هذا الدواءُ الشافي إلى القلْبِ قد خلا مِن مُزاحِمٍ ومُضَادٍ له فينجعُ فيه.

ومنها: أنَّ القرآنَ مادةُ الهُدى والعِلمِ والخيرِ في القلب، كما أنَّ الماءَ مادةُ النباتِ، والشيطانُ نارٌ يحرِقُ النباتَ أولًا فأولًا؛ فكلما أحسَّ بنباتِ الخيرِ مِن القلبِ سعَى في إفسادِه وإحراقِه؛ فأُمِرَ أنْ يستعيذَ بالله منه؛ لئلا يُفسدَ عليه ما يَحصُلُ له بالقرآنِ.

والفرقُ بين هذا الوجهِ والوجهِ الذي قبله: أنَّ الاستعاذةَ في الوجهِ الأوَّلِ لأجْلِ حصولِ فائدةِ القرآنِ، وفي الوجهِ الثاني لأجْلِ بقائِها وحفظِها وثباتِها.

وكأنَّ مَن قال: إنَّ الاستعاذةَ بعد القراءةِ لَحَظَ هذا المعنى، وهو لعَمْر الله مَلحَظٌ جيدٌ، إلا أن السُّنَّةَ وآثارَ الصحابةِ إنما جاءت بالاستعاذةِ قبل الشُّروعِ في القراءةِ، وهو قولُ جمهورِ الأمَّةِ من السَّلفِ والخَلفِ، وهي مُحصِّلةٌ للأمرين.

(١) البيت للمجنون في «ديوانه» (ص:٢١٩)، ويُنسب لغيره، يُنظر: «روضة المحبين» (ص:١٤٤، ٢١٢).

ومنها: أنَّ الملائكةَ تدنو مِن قارئ القرآن وتستمعُ لقراءته، كما في حديث أُسيد بن حُضَير لما كان يقرأُ ورأى مثلَ الظُّلةِ فيها مثلُ المصابيح، فقال عليه الصلاة والسلام: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ»، والشيطانُ ضدُّ الملَكِ وعدوُّه، فأُمِر القارئُ أنْ يطلبَ مِن الله تعالى مباعدةَ عدُوِه عنه حتى يَحْضُرَه خَاصَّتُه ومَلائِكَتُه، فهذه وليمةٌ لا تجتمعُ فيها الملائكةُ والشياطينُ.

ومنها: أنَّ الشيطانَ يُجلِب على القارئ بخيلِه ورَجِلِه؛ حتى يَشْغَلَه عن المقصودِ بالقرآن؛ وهو تدبُّرُه وتفهُّمُه ومَعرفةُ ما أراد به المتكلِّمُ به سبحانه؛ فيحرِصَ بجُهدِه على أنْ يحولَ بين قلْبِه وبينَ مقصودِ القرآنِ؛ فلا يَكملُ انتفاعُ القارئِ به، فأُمِرَ عند الشروعِ أن يستعيذَ بالله منه.

ومنها: أنَّ القارئَ مُناجٍ لله بكلامه، واللهُ تعالى أشدُّ أَذَنًا للقارئِ الحسَنِ الصوتِ بالقرآن مِن صاحبِ القَيْنةِ إلى قَيْنَتِه، والشيطانُ إنما قراءتُه الشِّعرُ والغناءُ، فأُمِرَ القارئُ أنْ يَطرُدَه بالاستعاذةِ عند مناجاته لله -تعالى- واستماعِ الربِّ قراءتَهُ.

ومنها: أنَّ اللهَ سبحانه أخبرَ أنه مَا أرسلَ مِن رسولٍ ولا نبيٍّ إلا إذا تمنَّى أَلْقَى الشَّيطانُ في أمْنيَّتِه، والسَّلفُ كلُّهم على أنَّ المعنى: إذا تَلا أَلْقَى الشَّيطانُ في تِلاوتِه، قال الشَّاعر في عثمان رضي الله عنه:

تَمَنَّى كِتَابَ الله أَوَّلَ لَيْلِهِ ** وآخِرَه لَاقَى حِمَامَ المَقَادِرِ».

فإذا كان هذا فِعلُه مع الرُّسُلِ، فكيف بغيرِهم؟

ولهذا يُغلِّطُ القارئَ تارةً، ويَخْبِطُ عليه القراءةَ ويُشوِّشُها عليه، فيخبِطُ عليه لسانَه، أو يشوِّشُ عليه فهْمَه وقلبَه، فإذا حضرَ عند القراءةِ لم يَعدَمْ منه القارئُ هذا أو هذا، وربما جمعَهما له، فكان مِن أهم الأمورِ: استعاذةٌ بالله منه عندَ القراءةِ.

ومنها: أنَّ الشيطانَ أحرصُ ما يكون على الإنسانِ عندما يهمُّ بالخيرِ أو يدخلُ فيه، فهو يشتدُّ عليه حينئذٍ لِيقطعَه عنه، وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ «**أنَّ شَيْطانًا تفلَّتَ**[1] **عَلَيَّ البَارِحَةَ، فأرادَ أنْ يقطعَ عليَّ صَلاتِي ...**»[2] الحديثَ، وكلَّما كان الفعلُ أنفعَ للعبدِ وأحبَّ إلى الله، كان اعتراضُ الشيطانِ له أكثرَ.

وفي «مسند الإمامِ أحمد» مِن حديث سَبْرة بن أبي الفاكِه رضي الله عنه أنه سمعَ النبيَّ ﷺ يقول: «**إنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: أَتُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الهِجْرَةِ، فَقَالَ: أَتُهَاجِرُ وَتَذَرُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ المُهَاجِرِ كَمَثَلِ الفَرَسِ فِي الطِّوَلِ؟**[3] **قَالَ: فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، قَالَ: ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الجِهَادِ، فَقَالَ: هُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ المَرْأَةُ وَيُقَسَّمُ المَالُ؟ قَالَ: فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ**»[4].

فالشيطانُ بالرَّصدِ للإنسانِ على طريق كل خير.

وقال منصورٌ عن مجاهدٍ رحمه الله: «ما مِنْ رفُقة تخرج إلى مكة إلا جهَّز معهم إبليسُ مِثلَ عُدَّتِهم» رواه ابنُ أبي حاتم في «تفسيره»[5].

---

(١) «تَفَلَّتَ: أي تعرَّضَ لي في صلاتي فَجأة»، «النهاية في غريب الحديث» (ص: ٧١٥).

(٢) حديث أبي هريرة رضي الله عنه: رواه البخاري في الصلاة، باب الأسير أو الغريم يُربط في المسجد، رقم (٤٦١)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة، رقم (٥٤١)

(٣) «الطِّول: «الطِّوَل والطِّيَل - بالكسر-: الحبْل الطّويل يُشَدُّ أحد طرَفَيه في وتِد أو غَيره والطَّرَف الآخر في يَد الفَرس ليَدُورَ فيه ويَرْعَى ولا يَذْهَب لوجْهه. وطَوَّل وأطال بمعنًى، أي: شدّها في الحبْل»، «النهاية في غريب الحديث» (ص:٥٧١).

(٤) «مسند أحمد» (٢٥/ ٣١٥) رقم (١٥٩٥٨).

(٥) لم أقف عليه في «تفسير ابن أبي حاتم»، وإنما أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٣٧)، وعزاه لابن المنذر عن مجاهد.

فهو بالرَّصَد؛ ولاسيما عند قراءة القرآن، فأَمَرَ سبحانه العبدَ أنْ يُحارِبَ عدوَّه الذي يقطعُ عليه الطريقَ، ويستعيذَ بالله تعالى منه أوَّلًا، ثم يأخذَ في السَّيْر، كما أنَّ المسافرَ إذا عرَضَ له قاطعُ طريقٍ اشتغل بدفعه، ثم اندفعَ في سيْرِه.

ومنها: أنَّ الاستعاذةَ قبل القراءةِ عنوانٌ وإعلامٌ بأنَّ المأتيَّ به بعدها القرآنُ، ولهذا لم تُشرعِ الاستعاذةُ بين يدي كلامِ غيره، بل الاستعاذةُ مُقدِّمةٌ وتنبيهٌ للسامع أنَّ الذي يأتي بعدَها هو التلاوةُ، فإذا سمِعَ السامعُ الاستعاذةَ استعدَّ لاستماع كلام الله، ثمَّ شُرِع ذلك للقارئ وإنْ كان وحده، لما ذكرنا مِن الحِكم وغيرها».[1]

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٥٧-١٦١).

خاتمة

وبهذا القَدْرِ تمَّ الكتابُ، والحمدُ لله الكريمِ الوهَّاب، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا مُحمَّدٍ وآلِهِ والأصحابِ، ومَن تبِعَهم بإحسانٍ إلى يومِ الرُجْعَى والمآب.

اللهم اجعل القرآنَ العظيمَ لقلوبِنا شفاءً، ولأبصارِنا ضياءً، ولأسقامِنا دواءً، ولذنوبِنا مُـمَحِّصًا، وعن النَّارِ مُخلِّصًا، واجعلنا مِن أهلِ القرآن الذين هم أهلُك وخاصَّتُك، يا ربَّ العالمين.

اللهم اجعلِ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلوبِنا، ونورَ أبْصارِنا، وشفاءَ صدورِنا، وجِلاءَ أحزانِنا، وذَهابَ همومِنا وغمومِنا، اللهم ذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وعلِّمنا منه ما جَهِلنا، وارزقنا تلاوتَه آناء الليل والنهار على الوجهِ الذي يُرضيك عنَّا، اللهم اجعَلنا ممن يُحِلُّ حلالَه، ويحرِّمُ حرامَه، ويعملُ بمحكمِه، ويؤمنُ بمتشابِهه، ويتلوه حقَّ تلاوتِه، اللهم اجعلنَا ممن يقيمُ حدودَه، ولا تجعلنا ممن يقيمُ حروفَه ويضيِّعُ حدودَه، اللهم اجعلنا ممن اتَّبعَ القرآنَ؛ فقادَهُ إلى رضوانِك والجنة، ولا تجعلنا ممن اتَّبعَه القرآنُ فزُخَّ في قفَاه إلى النارِ، واجعلنا مِن أهلِ القرآنِ الذين هم أهلُك وخاصتُك يا ربَّ العالمين.

*****

ثبت بالمصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن، للإمام الحافظ/ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي- تحقيق / مركز الدراسات القرآنية- ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية.
- أحكام القرآن، تأليف الإمام/ محمد بن إدريس الشافعي- تحقيق/ عبد الغني عبد الخالق- ط دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٠هـ.
- أسباب النزول، تأليف الإمام/ أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري- تعليق وتخريج د/ مصطفى ديب البغا - ط الأولى، دار المصطفى - دمشق ١٤٢٩هـ.
- الاستقامة، لشيخ الإسلام/ أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية،- تحقيق د/ محمد رشاد سالم – ط الأولى، دار الهدى النبوي – المنصورة ١٤٢٠ هـ.
- الأسماء والصفات، تأليف الإمام/ أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي – تحقيق/ عبد الله بن محمد الحاشدي - ط الأولى، مكتبة السوادي - جدة.
- إحياء علوم الدين، تأليف الإمام/ أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي- ط دار كرياطة فوترا سماراغ، أندونيسيا.
- الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية، تأليف الإمام/ أحمد بن محمد بن صديق الغماري – ط السادسة، مكتبة القاهرة- القاهرة ١٣٩١ هـ.

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف الشيخ العلامة/ محمد الأمين بن محمد المختارالشنقيطي- إشراف الشيخ/ بكر بن عبد الله أبو زيد- ط.الأولى، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة ١٤٢٦ هـ.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - قرأه وقدم له وعلَّق عليه/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- ط الأولى، دار ابن الجوزي - الرياض ١٤٢٣ هـ.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ـ تحقيق/ محمد عزير شمس، وخرَّج أحاديث/ مصطفى بن سعيد إيتيم - ط الأولى، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ١٤٣٢ هـ.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم ، تأليف الإمام القاضي/ أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي - حققه الدكتور/ يحيى إسماعيل- ط الأولى، دار الوفاء للطباعة، المنصورة ١٤١٩ هـ.
- البداية والنهاية، تأليف الحافظ/ إسماعيل بن عمر بن كثير - تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي - ط الثانية، دار عالم الكتب- الرياض ١٤٢٤ هـ.
- البرهان في علوم القرآن، تأليف الإمام/ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي- تحقيق د/ زكي محمد أبو سريع- ط الثانية، دار الحضارة للنشر- الرياض ١٤٣٠ هـ.
- بدائع الفوائد، تأليف الإمام الحافظ/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - تحقيق/ علي بن محمد العمران- ط.الثالثة، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة ١٤٣٣ هـ.
- البيان في عد آي القرآن، تأليف الإمام/ أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني الأندلسي - تحقيق د/ غانم قدوري الحمد- ط الأولى، مركز المخطوطات والتراث - الكويت ١٤١٤ هـ.

- التبيان في أيمان القرآن، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - تحقيق/ عبد الله بن سالم البطاطي، إشراف الشيخ / بكر بن عبد الله أبو زيد- مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، ط الأولى، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ١٤٢٩ هـ.
- التبيان في آداب حملة القرآن، تأليف الإمام/ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي- حققه وخرَّج أحاديثه/ بشير محمد عيون- ط مكتبة المؤيد، الطائف ١٤١٢ هـ.
- تفسير التحرير والتنوير، تأليف سماحة الشيخ/ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور- ط دار سحنون، تونس ١٩٩٧م.
- تفسير القاسمي المسمى: محاسن التأويل، تأليف علَّامة الشام/ محمد جمال الدين القاسمي - خرج أحاديثه ورقم آياته وعلق عليه أ/ محمد فؤاد عبد الباقي- ط الأولى ١٣٧٦ هـ.
- تفسير القرآن العظيم، تأليف الإمام الحافظ/ إسماعيل بن عمر بن كثير -تحقيق/ سامي بن محمد السلامة- ط الثانية، دار طيبة ١٤٢٠ هـ.
- تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، تأليف الإمام الحافظ / أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي- تحقيق/ أسعد محمد الطيب- ط الأولى، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ١٤١٧ هـ.
- تقريب التهذيب، تأليف الإمام الحافظ/ أحمد بن حجر العسقلاني- حققه وعلق عليه ووضحه/ أبو الأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني- النشرة الثانية، دار العاصمة - الرياض ١٤٢٣ هـ.
- تهذيب الكمال، للحافظ المتقن/ جمال الدين أبي الحجاج يوسف المِزِّي – حققه وضبط نصه وعلق عليه د/ بشار عواد معروف- ط الثانية، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٣ هـ.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي- اعتنى به/ سعد بن فواز الصميل- ط الثانية، دار ابن الجوزي ١٤٣٠ هـ.
- الثقات، للإمام الحافظ/ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، أبي حاتم التميمي البستي- تحت مراقبة د/ محمد عبد المعيد خان- ط الأولى، دائرة المعارف العثمانية- الهند ١٣٩٣ هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام/ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري ـ تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ ط. الأولى، مركز البحوث والدراسات بدار هجر- القاهرة ١٤٢٢هـ.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، تأليف الإمام الحافظ/ أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي، الشهير بابن رجب الحنبلي – تحقيق وتعليق/ طارق بن عوض الله بن محمد – ط الثامنة، دار ابن الجوزي- الدمام ١٤٣٠هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، تأليف الإمام/ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي- تحقيق د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي- ط الأولى، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٢٧ هـ.
- جامع المسائل، لشيخ الإسلام أحمد بن عبد السلام ابن تيمية- تحقيق/ محمد عزير شمس – ط الثالثة، دار عالم الفوائد – مكة المكرمة ١٤٣٢ هـ.
- حلية الأولياء، للحافظ/ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني – ط الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٩ هـ.

- الداء والدواء، والمسمى باسم «**الجواب الكافي لمن سأل عن الدَّواء الشَّافي**»، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - تحقيق/ محمد أجمل الإصلاحي - ط الأولى، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة ١٤٢٩ هـ.
- الدرر السنية في الكتب النجدية- جمع الشيخ/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - ط السادسة، ١٤١٧ هـ، (بدون ذكر دار النشر).
- ديوان الإمام الشافعي، للإمام/ أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي- اعتنى به/ عبد الرحمن المصطاوي- ط الثالثة، دار المعرفة- بيروت ١٤٢٦ هـ.
- ديوان حسان بن ثابت ﷺ - حققه وعلق عليه د/ وليد عرفات- ط دار صادر- بيروت ٢٠٠٦م.
- ذيل طبقات الحنابلة، تأليف الإمام الحافظ/ أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين أحمد البغدادي، ابن رجب الحنبلي - ط دار المعرفة - بيروت (بدون تاريخ).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف العلامة/ شهاب الدين السيد محمود الألوسي - حققه/ فؤاد بن سراج عبد الغفار- ط المكتبة التوفيقية- القاهرة (بدون تاريخ).
- زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - تحقيق/ شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط - ط الرابعة، مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٢٥ هـ.
- الزهد، للإمام/ أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل- وضع حواشيه/ محمد عبد السلام شاهين- ط الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٠ هـ.

- الزهد، للإمام/ عبد الله بن المبارك المروزي- حققه وعلق عليه/ حبيب الرحمن الأعظمي- ط الثانية، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٢٥ هـ.
- سنن ابن ماجه- حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه العلامة المحدث/ محمد ناصر الدين الألباني- اعتنى به/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان - ط الثانية، مكتبة المعارف الرياض ١٤٢٩ هـ.
- سنن أبي داود - حكم على أحاديثه وآثاره، وعلق عليه العلامة المحدث/ محمد ناصر الدين الألباني- اعتنى به/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان - ط الثانية، مكتبة المعارف الرياض ١٤٢٧ هـ.
- سنن الترمذي - حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه العلامة المحدث/ محمد ناصر الدين الألباني- اعتنى به/ أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان - ط الثانية، مكتبة المعارف الرياض ١٤٢٩ هـ.
- سنن الدارمي، تأليف الإمام الحافظ/ عبدالله بن عبدالرحمن بن الفضل بن بَهرام الدارمي - تحقيق/ حسين سليم أسد الداراني- ط الأولى، دار المغني - الرياض ١٤٢١هـ.
- السنن الكبرى، للإمام/ أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي- تحقيق/ محمد بن عبد القادر عطا- ط الثالثة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤ هـ.
- سير أعلام النبلاء، تأليف الحافظ/ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي- تحقيق الشيخ/ شعيب الأرنؤوط، وآخرون- ط الحادية عشرة، مؤسسة الرسالة ١٤٢٢ هـ.

- شرح صحيح البخاري، تأليف/ أبي الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال - ضبط نصه وعلَّق عليه/ أبو تميم ياسر بن إبراهيم - ط مكتبة الرشد- الرياض ١٤٢٣ هـ.
- شرح صحيح مسلم، تأليف الإمام/ يحيى بن شرف النووي، ط المطبعة المصرية بالأزهر ١٣٤٧هـ.
- شرح عمدة الفقه، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية – اعتنى بإخراجه/ خالد بن علي بن محمد المشيقح - ط الأولى، دار العاصمة- الرياض ١٤١٨ هـ.
- شعب الإيمان، تأليف الإمام الحافظ/ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي- حققه وراجع نصوصه وخرَّج أحاديثه د/ عبد العلي عبد الحميد حامد- ط الأولى، مكتبة الرشد- الرياض ١٤٢٣ هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تأليف القاضي / عياض بن موسى بن عياض اليحصبي- ط مكتبة دار التراث – القاهرة ١٤٢٥ هـ.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية - تحقيق ودراسة الدكتور/ أحمد بن صالح بن علي الصمعاني، والدكتور/ علي بن محمد بن عبد الله العجلان - ط الأولى، دار الصميعي، الرياض ١٤٢٩ هـ.
- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تأليف الحافظ/ محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي - تحقيق الشيخ/ بشعيب الأرنؤوط- ط الثانية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٤ هـ.

- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري- اعتنى به/ أبو عبدالله عبد السلام بن محمد بن عمر علوش- ط الثانية، مكتبة الرشد ١٤٢٧ هـ.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري- اعتنى به/ ياسر حسن، وعز الدين ضلي، وعماد الطيار - ط الأولى، مؤسسة الرسالة ١٤٣٠ هـ.
- صفة الصفوة للإمام أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي- تحقيق/ طارق محمد عبد المنعم-ط دار ابن خلدون- الأسكندرية.
- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، تأليف فضيلة الشيخ/ عبد الرحمن بن محمد الدوسري- ط الأولى، دار المغني – الرياض ١٤٢٥ هـ.
- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ابن قدامة المقدسي، دار الكتاب العربي.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ الفقيه/ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن شهاب الدين، الشهير بابن رجب الحنبلي- تحقيق/ طارق بن عوض الله بن محمد - ط الأولى الإصدار الثاني، دار ابن الجوزي، الدمام ١٤٣٠هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف الحافظ/ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - ط الأولى، دار السلام، الرياض ١٤٢١ هـ.
- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، تأليف الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين - ط الأولى، مدار الوطن، الرياض ١٤٢٩ هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف الإمام/ محمد بن علي الشوكاني – ط السادسة، مكتبة الرشد – الرياض ١٤٣٠ هـ.

- فضائل القرآن، تأليف الإمام الحافظ/ إسماعيل بن عمر بن كثير – تحقيق الشيخ/ أبي إسحاق الحويني- ط الأولى، مكتبة ابن تيمية ١٤١٦ هـ.
- فضائل القرآن، تأليف شيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب- صححه وخرَّج أحاديثه/ عبد العزيز بن زيد الرومي، وصالح بن محمد الحسن- مطبوع ضمن مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب.
- الفوائد، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ـ تحقيق/ محمد عزير شمس ـ ط. الأولى، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة ١٤٢٨هـ.
- القصيدة النونية، المسماة بـ [**الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية**]، تأليف الحافظ: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ـ تحقيق: محمد بن عبد الرحمن العريفي، وأخرون ـ ط. الأولى، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة ١٤٣٢هـ.
- القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن، تأليف الشيخ العلامة/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي – اعتنى به/ خالد بن عثمان السبت – ط الأولى، دار ابن الجوزي- الدمام ١٤٣١ هـ.
- كتاب الحوادث والبدع، تأليف الإمام/ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي – ضبط نصه وعلق عليه/ علي بن حسن الحلبي -ط الثالثة، دار ابن الجوزي – الدمام ١٤٢٢ هـ.
- كتاب العين، تأليف/ الخليل بن أحمد الفراهيدي - تحقيق/ د.مهدي المخزومي، ود.إبراهيم السامرائي -ط دار ومكتبة الهلال، القاهرة (بدون تاريخ).
- لسان العرب لابن منظور- ضبط نصوصه وعلق حواشيه د/ خالد رشيد القاضي- ط الأولى، دار الأخيار- الرياض ١٤٢٧ هـ.

- لطائف المعارف فيما المواسم العام من الوظائف، تأليف الإمام الحافظ/ زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن شهاب الدين، الشهير بابن رجب الحنبلي - تحقيق/ عامر بن علي ياسين - ط. الأولى، دار ابن خزيمة - الرياض ١٤٢٨هـ.
- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي- دراسة وتحقيق/ أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني- ط الثانية، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر- القاهرة ١٤٢٤ هـ.
- المجموع شرح المهذب، للحافظ الإمام/ محيي الدين يحيى بن شرف النووي - تحقيق الشيخ/ محمد نجيب المطيعي - ط الثانية، دار عالم الكتب، الرياض ١٤٢٧هـ.
- مجموع فتاوى ابن تيمية – جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وولده محمد- ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية ١٤٢٥ هـ.
- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، تأليف الشيخ/ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - جمع وترتيب وإشراف د/ محمد بن سعد الشويعر- ط دار أصداء المجتمع، السعودية ١٤٢١ هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف الحافظ/ محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي – دراسة وتحقيق/ د. ناصر بن سليمان السعوي، وآخرون - ط الأولى، دار الصميعي- الرياض ١٤٣٢ هـ.
- المستدرك على الصحيحين، للإمام الحافظ/ أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري- ط الأولى، دار الحرمين للنشر والطباعة، القاهرة ١٤١٧ هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل - تحقيق / شعيب الأرنؤوط، وآخرون- ط الثانية، مؤسسة الرسالة ١٤٢٩ هـ.

- مسند البزار المعروف بـ (البحر الزخار)، تأليف الحافظ: أبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار ـ تحقيق د: محفوظ الرحمن زين الله ـ ط. الأولى، مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة ١٤٠٩هـ.
- المصباح المنير، تأليف/ أحمد بن محمد بن علي الفيومي - ط مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٧ م.
- مصنف ابن أبي شيبة، للحافظ/ أبي بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة – تحقيق/ حمد بن عبد الله الجمعة، و محمد بن إبراهيم اللحيدان – ط الثانية، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٢٧ هـ.
- مصنف عبد الرزاق، للإمام/ عبد الرزاق بن همام الصنعاني- تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي- ط الثانية، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣ هـ.
- معالم التنزيل، تأليف الإمام/ محيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي - تحقيق/ محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش- ط الثالثة، دار طيبة - الرياض ١٤٣١ هـ.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة - ط الرابعة، مكتبة الشروق الدولية ١٤٢٥ هـ.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف الحافظ: محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ـ تحقيق/ عبد الرحمن بن حسن بن قائد، وفق منهج الشيخ/ بكر بن عبد الله أبو زيد ـ ط. الأولى، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة ١٤٣٢هـ.
- مقدمة في التفسير لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق د/ عدنان زرزور – ط الثانية، دمشق ١٣٩٢ هـ.

- مناهل العرفان في علوم القرآن، بقلم الشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني- حققه واعتنى به/ فواز أحمد زمرلي – ط الثانية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٧ هـ.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي - دراسة وتحقيق/ محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا- ط الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٢هـ.
- الموافقات، تأليف الإمام المحقق/ أبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي - ضبط نصه وقدم له وعلّق عليه وخرج أحاديثه / أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان- ط الثالثة، دار ابن القيم – الرياض ١٤٣٠هـ.
- موطأ الإمام مالك بن أنس- تحقيق/ كلال حسن علي- ط الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٣٢ هـ.
- نهاية الإرب في فنون الأدب، تأليف/ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري – تحقيق/ مفيد قميحة وآخرون – ط الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٢٤ هـ.
- النهاية في غريب الحديث لأبي السعادات ابن الأثير – أشرف عليه وقدّم له/ علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد الحلبي - ط الخامسة، دار ابن الجوزي- الدمام ١٤٣٠هـ.

*****

فهرس الموضوعات